دراسة في أعمال توفيق زيّاد الأدبيّة

إعداد

أسامة حاتم عبد القادر شاهين

تعتمد كلية الدراسات العليا
هذه النسخة من الرسالة
التوقيع ..... التاريخ ١٦/٦/٢٠٠٦

إشراف

الأستاذ الدّكتور هاشم ياغي

قدمت هذه الرّسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في

اللّغة العربية وآدابها

كلية الدراسات العليا

الجامعة الأردنيّة

أيّار ٢٠٠١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ ٢٠٠١/٥/٢٢

أعضاء لجنة المناقشة	التوقيع
أ.د هاشم عبد الوهاب ياغي (مشرفاً) أستاذ النقد الأدبي في الجامعة الأردنية	.....
أ.د علي أحمد الشرع (عضواً) أستاذ النقد الأدبي الحديث والشعر المعاصر في جامعة اليرموك	.....
د. ابراهيم محمود خليل (عضواً) أستاذ مشارك في اللسانيات في الجامعة الأردنية	.....
د. محمد علي سعيد ابو حمدة (عضواً) أستاذ مساعد في النقد الأدبي في الجامعة الأردنية	.....

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهداء

لشموع حياتي المضيئة ...

لوالدي الحبيب قرّة عيني وصديق عمري الأوحد، رفيق دربي الأقرب إلى نفسي، مثلي الأعلى وقدوتي في الحياة، أستاذي الأول سبب حبي العربية وطلب العلم، منهلي الذي أستقي منه المثابرة والمتابعة في البحث والدرس.

لوالدتي الحبيبة سر وجودي واسباب الحياة، مشرق شمسي ومورد الأمل، وطني الكبير وملاذي الأول والأخير، طعم الحنان وصوت الحب.

لمن آمنت بي إيماناً مطلقاً، ونسجت لي من خيوط الشمس جسر تفاؤل أعبره فوق هوّة اليأس، ومن ضوء القمر قنديل أمل أضاء دربي حتى اكتمل هذا العمل.

للأحبة الأعزاء إخوتي وأخواتي ... وخاصة عدي ومحمد وعبدالرحمن

إليكم جميعاً أهدي هذا العمل.

أسامة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكر وتقدير

الحمدُ والشكر لله سبحانه وتعالى أولاً وأخيراً ..

أتقدم بجزيل شكري وعظيم تقديري وامتناني لأستاذي الدكتور هاشم يـــاغي الذي اشرف على هذه الرسالة من بدايتها حتى نهايتها، ولم يضنّ علي لحظةً بعلمـــه الغزير وملحوظاته المضيئة وآرائه القيّمة.

كما أتقدم بالشكر والتقدير والعرفان للأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشـة، الأستاذ الدكتور علي أحمد الشرع، والدكتور ابراهيم محمود خليل والدكتور محمـــد علي أبو حمده، الذين تكرموا عليّ بقراءة رسالتي هذه ومناقشتها، وأبدوا ملحوظاتهم المشرقة في سبيل النهوض بمستواها، والارتقاء بها نحو الأفضل.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
قرار لجنة المناقشة	ب
الإهداء	ج
شكر وتقدير	د
المحتويات	هـ - ز
الملخص باللغة العربية	ح ، ط
المقدمة	١-٤
التمهيد : توفيق زيّاد حياته وفكره	٥-١٠
- الفصل الأول : توفيق زيّاد الشاعر	١١-١١٤
- البعد الوطني المحلي :	١٤-٤٦
الأرض	١٤-١٨
الوطن	١٩-٢٧
المدينة	٢٧-٣٠
الشعب	٣٠-٣٩
السلطة	٤٠-٤٥
الشهيد	٤٥-٤٦
- البعد القومي :	٤٧-٥٦
الأمة العربية	٤٨-٥٢
الاستعمار	٥٣-٥٦
- البعد الأممي الإنساني :	٥٧-١١٤
الحرية	٥٧-٥٩
السلام والحرب	٥٩-٦٨
الثورة والكفاح	٦٨-٧٦
العمال	٧٦-٧٩
المرأة	٧٩-٨٧
الطفولة	٨٧-٩٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموضوع	الصفحة
- الشكل الفني :	٩١-١١٤
اللغة	٩١-٩٥
الصورة الشعرية	٩٥-١٠١
الوزن والإيقاع	١٠١، ١٠٢
البناء	١٠٣-١١١
السمات الأسلوبية	١١١-١١٤
- الفصل الثاني : توفيق زيّاد الناثر :	١١٥-١٤٨
- توفيق زيّاد القاص :	١١٦-١٣٦
- البعد الاجتماعي :	١١٧-١٢٠
حال الدنيا	١١٧
الشاهدان والمئذنة	١١٨
الناموس	١١٨، ١١٩
عن الباشوات والبكوات والحمير	١١٩، ١٢٠
- البعد السياسي :	١٢١-١٢٥
كيف أصبح الحمار شيخاً للعسكر	١٢١، ١٢٢
هكذا نحن	١٢٢، ١٢٣
أبو حنيك وعبد القهوة	١٢٣
النحلة الملحدة	١٢٤، ١٢٥
- البعد الفكري :	١٢٦-١٣٣
وجه البقرة الميتة	١٢٦، ١٢٧
حكاية عن الحياة والموت	١٢٨، ١٢٩
عباس الصياد وديك الحجل	١٣٠
محمود لا ينسحب	١٣١، ١٣٢
أختي أجمل مني	١٣٢، ١٣٣
- المستوى الفني لقصصه وعلاقتها بالفلكلور	١٣٣-١٣٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموضوع	الصفحة
- توفيق زيّاد كاتب المقالة	١٣٧-١٤٠
- توفيق زيّاد الناقد :	١٤١-١٤٨
حفظ التراث الشعبي	١٤١-١٤٤
الشعر العربي الثوري في فلسطين المحتلة وتقسيمه إلى ستة ملامح	١٤٥-١٤٧
محمود درويش في عاشق من فلسطين	١٤٧، ١٤٨
مسرحية الأدب للكاتب السويدي أوغست ستراند بيرغ	١٤٨
- الخاتمة	١٤٩
- قائمة المصادر والمراجع	١٥٠-١٥٣
- الملخص باللغة الإنجليزية	١٥٤-١٥٦

٥٤١٤٩٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الملخص

دراسة في أعمال توفيق زيّاد الأدبية

إعداد

أسامة حاتم شاهين

إشراف

الأستاذ الدكتور هاشم ياغي

لفت الأدب الفلسطيني الأنظار في أعقاب نكبة فلسطين، حيث راح الشعراء والأدباء الفلسطينيون يسعون جاهدين لإقناع العالم بأسره بعدالة القضية الفلسطينية، التي شكلت هماً احتل جل تفكيرهم واهتمامهم، فأخذوا يخصصون أشعارهم وكتاباتهم المختلفة من أجلها تحديداً، وفي سبيل خدمتها أولاً وأخيراً.

لكن الأحداث المتوالية التي عصفت بفلسطين خاصة والوطن العربي عامةً أدت إلى ظهور مجموعة من الشعراء والأدباء داخل فلسطين المحتلة، تميزوا عن غيرهم بأنهم عايشوا الاحتلال، وعاشوا واقعه المرير، وقاوموه باليد والفن في مسيرتهم الساعية إلى تغيير الواقع القائم. كذلك فقد تعلق هؤلاء بحركات التحرر العالمية في شتى بقاع العالم، وامتزجوا مع نضالها في سبيل التحرر من الظلم والاستعمار والاستبداد. وإذا ما عرفنا أن أغلب أفراد هذه المجموعة كانوا حزبيين من أبناء التيار الماركسي ومدرسته الواقعية الجديدة، فلن نستغرب تميزهم عن الشعراء الآخرين حين راحوا ينظرون إلى قضية فلسطين في إطار نظرتهم الواعية العميقة إلى قضايا الوطن العربي الكبير، وشعوب العالم المناضلة المكافحة، في الوقت ذاته؛ وبذلك أعطوا القضية نكهة خاصة، وامتدوا بها لتتخذ أبعادها الوطني والقومي والأممي معا. وقد كان من أبرز هؤلاء الشاعر الأديب الناقد توفيق زيّاد موضوع دراستنا.

إذ تهدف هذه الدراسة إلى تناول أعمال توفيق زيّاد الكاملة بشعرها ونثرها؛ لتبين القضايا والمضامين التي شغلته في أشعاره وقصصه ومقالاته ونقده، ومدى تُمثله مبادئ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مدرسته الواقعية الجديدة ومواقفها وثوابتها في ذلك كله. مع الاهتمام بالشكل الفني لـــــهذه الأعمال. لتبرز في النهاية صورة توفيق زيّاد شاعراً أديباً ناقداً.

وقد فرضت الدراسة نفسها في تمهيد وفصلين وخاتمة.

أما **التمهيد** فقد شكل مدخلاً للبحث والدرس، من خلال الحديث **عن حياة توفيـــق زيّاد وفكره**، وتأثيرهما الواضح في تكوين ملامح شخصيته السياسية والأدبية.

في حين يتناول **الفصل الأول الأعمال الشعرية** معاً وما حملته من مضامين. ومـن ثم دراستها دراسة فنية من حيث الشكل.

ويتناول **الفصل الثاني الأعمال النثرية** مبتدئاً بالقصة من حيث مضامينها وشـــكلها الفني. تليها المقالة الأدبية من حيث النهج والمضمون والشكل الفني. ومن ثم أهم القضايـــا النقدية التي تناولها توفيق زيّاد بالنقد لإبراز منهجيته النقدية، وطبيعته في نقده من حيـــث كونه ناقداً بناءً أو غير ذلك، ودرجة وعيه في تناوله تلك القضايا بالنقد.

وأخيراً فقد جاءت **الخاتمة خلاصة تبرز نتائج هذه الدراسة** ممثلة فـــي صـــورة توفيق زيّاد شاعراً وقاصاً وكاتب مقالة وناقداً.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقدمة :

توفيق زيّاد أحد الذين لعبوا دوراً مهماً في رسم ملامح صورة الأدب المقاوم في الأرض المحتلة بشعره ونثره. ويعرف توفيق زيّاد بكل من محمود درويش وسميح القاسم ويعرفان به، فحين يذكر أحد هؤلاء الثلاثة يذكر الاثنان الآخران معه.

ويلفت النظر أن توفيق زيّاد لم يحظ بالدراسات التي حظي بها رفيقاه محمود درويش وسميح القاسم. ولا أعلم دراسة متخصصة – قبل هذه – في أعماله جميعها، ومن هنا كانت ضرورة إجراء هذه الدراسة المتخصصة.

ولعل أهم العقبات التي واجهت هذه الدراسة أن أعمال توفيق زيّاد كانت في معظم حالاتها تعبيراً عن جوانب من حياة الشعب الفلسطيني في الأرض المحتلة؛ وهذا بدوره ما جعل الرؤية لمدى التلاقي بين أعماله الأدبية وواقع الحياة الفلسطينية- تحت الاحتلال- صعبة. أضف إلى ذلك قلة الدراسات التي تناولته وأعماله بشعرها ونثرها ؛ مما جعل هذه الدراسة تعتمد أساساً على المصادر الأساسية بالدرجة الأولى وهي أعمال توفيق زيّاد الكاملة شعراً ونثراً. ومن ثم الإفادة من الدراسات السابقة- قدر الإمكان-. بما تناولته في الجوانب الذاتية والشعرية والأدبية والنقدية لتوفيق زيّاد، والامتداد بعدها إلى أعماله الكاملة جميعها.

وقد اعتمدت الدراسة من حيث منهجيتها اعتماداً أساسياً على المدرسة الواقعية الجديدة، ذلك أن أعمال توفيق زيّاد تتكئ كثيراً على هذه المدرسة، ولا غرو فهو ابن هذه المدرسة الذي اقتفى خطاها، ونهل من معينها، فقد يرى المرء بوضوح اهتمامه بالجوانب الطبقية، وتعلقه بالجماهير وروح الجماعة، والجوانب المعنية كثيراً بالشعب الفلسطيني وترسم صورته ترسماً ينظر في أضواء ملموسة لصور بعض الشعوب العالمية المناضلة. وقد اقترن هذا كله بتتبع الأعمال الأدبية جميعها لتوفيق زيّاد، وتحليلها تحليلاً يعنى كثيراً بمضامينها، وتصنيف هذه المضامين في بنية الواقعية الجديدة، مع الاهتمام الواضح – أيضاً – بالشكل الفني لهذه الأعمال التي توزعت في الشعر والقصة القصيرة والمقالة الأدبية والنقد.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد عمدت إلى دراسة الأعمال بأن قسمتها إلى أبعاد بمضامينها في الشعر والقصة والمقالة، متبعاً ذلك بدراسة للشكل أو المستوى الفني وإلى قضايا في النقد، خلصت من خلالها إلى منهجية النقد، وطبيعته، ودرجة الوعي فيه.

وقد جاءت الدراسة في تمهيد، وفصلين، وخاتمة.

ولما كان هدف الدراسة إيفاء الأعمال الشعرية والنثرية حقها من البحث والدرس، فلم أول اهتماماً لأن يتناسب الفصل الأول مع الفصل الثاني من حيث الكم والحجم، وإنما تركت لكل فصل تحديد حجمه وكمه تبعا لمقتضيات البحث والدرس.

وقد كانت أقسام الدراسة على النحو التالي :

التمهيد : وتناولت فيه النقاط المضيئة والمحطات المهمة في **حياة توفيق زيّاد**، إضافة إلى **فكره الاشتراكي** ومدى تعبيره عن هذا الفكر في أشعاره تحديداً، لكونها نتاجه الأكثر في فن القول. للوصول إلى التأثير الواضح لحياته وفكره في تحديد ملامح مسيرته الشعرية الأدبية ورسم صورتها، ليكون بذلك مدخلاً إلى دراسة أعماله.

الفصل الأول : وفيه تناولت **الأعمال الشعرية** معاً بالدرس في المضامين والشكل الفني، بأن قسمتها إلى ثلاثة أبعاد انطوى تحت كل منها عدد من المضامين. وهذه الأبعاد هي: **البعد الوطني المحلي:** ويضم مضامين: (الأرض، والوطن، والمدينة، والشعب، والسلطة والشهيد).

البعد القومي : ويحمل مضموني : (الأمة العربية، والاستعمار).

البعد الأممي الإنساني : وقد حمل هذا البعد العدد الأوفر من المضامين. وهي:

(الحرية، والسلام والحرب، والثورة والكفاح، والعمال، والمرأة، والطفولة).

أما المضامين التي توزعت على غير بعد، فقد آثرت وضعها في بعد واحد اجتهدت أن يكون الأكثر تمثيلاً لها، خشية تشتيتها، وتعبيراً عن تكاملها وامتدادها.

ثم اتبعت ذلك بدراسة للشكل الفني لأشعاره من حيث جوانب :

اللغة، والصورة الشعرية، والوزن والإيقاع، والبناء، والسمات الأسلوبية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني : وقد خصصته **للأعمال النثرية**، وسرت فيها وفق الترتيب التالي:

القصة: ودرستها أيضاً بعيدا عن الإطار الزمني بأن قسمتها إلى ثلاثة أبعاد حمل كل منها عدداً من القصص. وهذه الأبعاد بقصصها هي :

البعد الاجتماعي: وتمثل في قصص : (حال الدنيا، والشاهدان والمئذنة، والناموس، وعن الباشوات والبكوات والحمير).

البعد السياسي : وتبدّى عبر قصص: (كيف أصبح الحمار شيخاً للعسكر، وهكذا نحن، وأبو حنيك وعبد القهوة، والنحلة الملحدة).

البعد الفكري : وظهر من خلال قصص (وجه البقرة الميتة، وحكاية عن الحياة والموت، وعبّاس الصياد وديك الحجل، ومحمود لا ينسحب، وأختي أجمل مني).

وكنت أوضح المضمون الذي طرحه توفيق زيّاد عبر كل قصة في كل بعد، متناولاً ذلك بالنقد والتحليل، بعد تلخيص كل قصة لوضع القارئ في جوها.

ثم اتبعت ذلك بمناقشة هدفت إلى بيان فيما إذا كانت هذه القصص جميعها قصصاً فلكلورية أم لا.

وأخيراً تناولت القصص من حيث مستواها الفني عبر العناصر القصصية.

المقالة الأدبية : وهنا تناولت المقالة الأدبية بنوعيها:(مقالة التعريف بشخصية أدبية، ومقالة التعريف بعمل أدبي)، من خلال نموذج مثل النوعين معاً، ودرستها نهجاً وشكلاً ومضموناً.

النقد : ودرست فيه أهم القضايا التي تناولها توفيق زيّاد، وخلصت من خلالها إلى منهجيته النقدية، وطبيعته في نقده، ودرجة الوعي لديه. عبر القضايا التالية:

- **حفظ التراث الشعبي وتسجيله باللغة الفصحى المبسطة.**
- **الشعر العربي الثوري في فلسطين المحتلة وتقسيمه إلى ستة ملامح أساسية.**
- **نقده شعر محمود درويش في ديوانه عاشق من فلسطين.**
- **ملاحظته حول مسرحية الأدب للكاتب السويدي أوغست ستراندبيرغ.**

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتمة : وقد مثلت **خلاصة تبرز نتائج هذه الدراسة** ممثلة في تجلية الصـــورة التي كان عليها توفيق زيّاد شاعراً وقاصاً وكاتب مقالة وناقداً.

ولا إخالني في هذه الدراسة قد جمعت المجد من أطرافه، وأمسكت التمـــيز مـــن عقاله، إذ حسبي أن أقدم نزراً يسيراً لكل باحث في توفيق زيّاد وأعماله تحديداً، وكل مهتم بالأدب الفلسطيني عموماً. وأخص بهذا أبناء جيلي، ومن هم أصغر سناً مني ممن نشـــؤوا وترعرعوا خارج فلسطين المحتلة. فإن أحسنت فالفضل كله لله أولاً ثم لأستاذي الدكتـــور هاشم ياغي ثانياً، وإن أسأت فالإنسان يصيب مرة ويخطئ مرات والله الموفق.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تمهيد:

توفيق زياد
حياته وفكره

حياة توفيق زياد منذ ولادته في الناصرة في السابع من أيار عام ألف وتسعمئة وتسعة وعشرين،[١] وحتى وفاته في الخامس من تموز من عام ألف وتسعمئة وأربعة وتسعين[٢] سلسلة من الأحداث الخصبة التي حملت نقاطا مضيئة ومحطات مهمة، كانت عاملا أساسا - فيما بعد - في فرض المسارات التي اتخذتها أشعاره، والمضامين التي تناولها فيها طرحا ومعالجة، فقد شكلت مع فكره الشيوعي شقين لا ينفصلان في طرح رؤاه الشعرية وتحديد مسيرته الشعرية الأدبية.

فقد عاش طفولته في ظل الاحتلال البغيض، وعرف بشاعته وقسوته ومعناه منذ كان طفلا في السابعة من عمره، حين داهم الجنود منزلهم واعتقلوا والده.[٣] وفي المدرسة الثانوية في الناصرة، بدأت شخصيته السياسية تتبلور، حيث اطلع على الفكر الشيوعي من معلميه، وشارك في التظاهرات الشعبية، والمظاهرات الطالبية مع زملائه، وكان له فيها دوره الفاعل المؤثر.[٤] واكتملت أبعاد هذه الشخصية بوضوح حين انتمى رسميا لصفوف الحزب الشيوعي في أثناء النكبة عام ألف وتسعمئة وثمانية وأربعين، وشارك في نشاطاته التي استهدفت مقاومة سياسة السلطة المحتلة، وتثبيت الجماهير العربية.[٥]

---

(١) عائلة توفيق زياد - السيرة الذاتية (١٩٢٩-١٩٩٤)، مطبعة أبو رحمون، عكا، ١٩٩٤، ص١.
- لجنة التأبين، بلدية الناصرة - في ذكرى الأربعين لرحيل الفارس توفيق زياد، مطبعة وأوفست الحكيم، الناصرة، آب ١٩٩٤، ص ١٠.
- نظير مجلي، توفيق زياد: صقر فلسطين مات، اليسار عدد ٥٤، القاهرة، ١٩٩٤، ص ٤٣.

(٢) في ذكرى الأربعين ص ٤٨، ٤٩.
- توفيق زياد: صقر فلسطين مات، اليسار عدد ٥٤، ص ٤٣.

(٣) في ذكرى الأربعين ، ص ٩، ١٠.

(٤) المرجع نفسه، ص ١١،١٢.
- السيرة الذاتية، ص ٢.

(٥) المرجع نفسه، ص ٣،٤.
- في ذكرى الأربعين، ص ١٢، ١٣، ١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد نضج فكره الشيوعي بسفره إلى الاتحاد السوفييتي لدراسة الحقوق، حيث أخذ بسياسته في دعم الدول الفقيرة وحركات التحرر الوطني، فأحب مدنه التي زارها لأنها مدن الأصدقاء، والرفاق الشيوعيين الذين وقفوا إلى جانب أمته العربية في قضاياها، وانعكس هذا ايجاباً في أشعاره.[١] كل هذا طبع شعره بطابع أممي إنساني تحرري، فأصبح واحداً ممن وسعوا دائرة الشعر في الأرض المحتلة ليتخذ بعد التحرر الإنساني[٢].

وحين شارك العمال إضراباتهم وثوراتهم في سبيل تحصيل لقمة العيش، وانخرط معهم في قضاياهم، أصبح أكثر التصاقا بالمحلية، وإدراكاً أن الثورة ضد الظلم والطغيان إنما تصنعها أيدي الكادحين، ولا تنبت في القصور الفارهة.[٣]

وعندما نجح في الوصول إلى عضوية المجلس البلدي، ومارس عمله فيه حتى تولى رئاسة البلدية[٤] كان قد أصبح أكثر اتصالاً بأبناء شعبه، يدافع عن قضاياهم وهمومهم، ويعمل من أجلهم، وهذا ما صبغ شعره بالصبغة الوطنية، وأنبت فيه الجذور السياسية، التي استمرت تضرب في الأرض من خلال عمله نائباً في (الكنيست)[٥] حيث حملت قصائده في هذه الأثناء صبغة قومية تناولت قضايا شعوب أمته المكافحة ضد الاستعمار والطغيان، فكان دائم التصدي لليمين العنصري - وحتى لحزب العمل - في قضايا الجماهير العربية، كحرب لبنان مثلاً حين وقف ضد السلطة في غزوها الاحتلالي الغاشم.[٦]

---

(١) السيرة الذاتية، ص ١١.
- في ذكرى الأربعين، ص ٢١.
- عبد الرحمن عباد، الحركة الأدبية الفلسطينية في الناصرة، مكتبة كل شيء، حيفا، ص ٤٨٧.

(٢) عبد الرحمن ياغي - شعر الأرض المحتلة في الستينات دراسة في المضامين، ط٢، الكويت، ١٩٨٢م، ص ٣٤٩.

(٣) السيرة الذاتية، ص ٤.
- في ذكرى الأربعين، ص ١٤.
- صقر فلسطين، اليسار، عدد ٥٤، ص ٤٣.

(٤) السيرة الذاتية، ص ٤، ٥، ١٥، ١٦.
- في ذكرى الأربعين، ص ١٥، ٢٦، ٢٧.
- صقر فلسطين، اليسار، عدد ٥٤، ص ٤٤.

(٥) المرجع نفسه، ص ٤٤.
- السيرة الذاتية، ص ١٢، ١٣.
- في ذكرى الأربعين، ص ٢٤.

(٦) المرجع نفسه، ص ٢٤، ٢٥.
- السيرة الذاتية، ص ١٣، ١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا كانت له مواقفه القومية البارزة في مختلف أحداث العالم العربي، داعيةً من دعاة وحدة العرب، وتطورهم الاقتصادي الاجتماعي الحضاري، فاتسم بالعمق السياسي وبعد النظر والتحليلات الشمولية.(١)

ولعل من الأهمية بمكان التوقف عند اعتقاله في سجن الرملة في أيار سنة ألف وتسعمئة وثمان وخمسين، ثم في سجن الدامون في تموز من العام نفسه. فقد أدخلته هذه التجربة القاسية ساحة النضال الفعلي الحقيقي، فلم يعد ينظر إلى النضال عن بعد، بل شارك فيه مشاركة فعلية حين خاض التجربة واقعاً عملياً حياتياً معيشاً، مما كان له دوره المهم في إنضاج تجربته الشعرية، وساعده في تطوير شعره شكلاً ومضموناً.(٢) وفي هذا يقول هو نفسه: "إن التجربة الحياتية هي التي تكمن في أساس الشعر كما تكمن في أسلس كل معرفة بشرية وكل عمل فني وكل شكل من أشكال الوعي الاجتماعي. إن الموهبة هي القدرة على استيعاب التجربة وإعادة (إخراجها) بالشكل الأكثر مناسبة لروح التجربة ذاتها. إن موهبة بدون تجربة مثل حجر الطاحون يدور على الفاضي".(٣)

ومن هنا فقد اتخذ الشعر سبيلاً للمقاومة، والرفض سبيلاً للنضال، وفرض للكلمة دورها النضالي.(٤)

اعتنق توفيق زيّاد الفكر الاشتراكي حين انضم رسمياً للحزب الشيوعي - كما تقدم - وقد عكس انتماءه لهذا الفكر، وعبر عن شيوعيته بصراحة ووضوح في أشعاره ففي قصيدته (شيوعيون) يرى الفكر الشيوعي طريقاً لتحرير الشعوب، والقضاء على الظلم والاستعمار:

قالوا: شيوعيون، قلت: أجلهم
حمراً بعزمهم الشعوب تحرر
قالوا: شيوعيون. قلت: منية
موقوتة للظالمين تقدر.(٥)

---

(١) صقر فلسطين، اليسار، عدد ٥٤، ص ٤٥.
(٢) شعر الأرض المحتلة، ص ٣٦٨، ٣٧٠.
(٣) توفيق زيّاد - عن الأدب والأدب الشعبي الفلسطيني، دار العودة، بيروت، ١٩٧٠م، ص ١٢١.
(٤) شعر الأرض المحتلة، ص ٣٤٩.
(٥) توفيق زيّاد - أشد على أيديكم، ط٢، مطبعة أبو رحمون، عكا، ١٩٩٤م، ص ٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد طبق توفيق زيّاد الفكر الشيوعي عملياً من خلال مدرسته الحياتية المعيشة الواقعية الاشتراكية (الجديدة) حيث عكس مبادئها في أشعاره ومواقفه.

ولما كانت الطبقة العاملة والصراع الطبقي هما محور الفكر الشيوعي، فقد أحب العمال وبين أنهم الشعب، وأنهم الأولى بالعناية، وأصحاب الحق في امتلاك وسائل الإنتاج، وجني الثمار التي تصنعها أيديهم:

كل ما نطلب:

حق الناس أن تمتلك الخير الذي

تبدعه

أيديهم السمر العريقه[١]

أما الصراع الطبقي فقد عبر عنه في قصيدته (إلى عمال آتا المضربين) حيث يقول:

دربنا واحد فهاتوا الأيادي

يا رفاق المعارك الطبقيه[٢]

ولم يقف عند هذا الحد، بل عبر أيضاً عن مبادئ مدرسته من حيث الأضداد، والصراع الطبقي ثانية وديناميكية الحياة، في قصيدته (عثمان):

وتحدثنا عن السودان، عن مصر

وعن الأضداد

والأشياء في حركتها

عن دايلكتيك الطبيعه

وقانون الصراع الطبقي.[٣]

---

(١) توفيق زيّاد – أنا من هذي المدينة، ط١ مطبعة أبو رحمون، عكا، ١٩٩٤م، قصيدة (النداية)، ص ١٢٠.

(٢) أشد على أيديكم، ص ١٢١.

(٣) توفيق زيّاد – كلمات مقاتلة، ط٢، مطبعة أبو رحمون، عكا، ١٩٩٤م، ص ١٠٢، ١٠٣. انظر أيضاً رؤيته النقيضين وعدم اكتفائه بالواقع القائم كما هو، وإنما ضرورة تغييره إلى النقيض الأفضل والأجمل في قصيدة (النداية)، ص ١٢٥، من ديوانه (أنا من هذي المدينة).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كذلك عبر عن ناموس الكون وطبائع الأمور حين قال في قصيدته (أحب ولكن):

أحب لو استطعت بلحظة
أن أقلب الدنيا لكم رأساً على عقب
ولكن للأمور طبيعة
أقوى من الرغبات والغضب[١]

ولم ينس التغيير، فتغيير الخطأ إلى الصواب، وإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح ضرورة لا بد منها:

فافتلي يا كرة أرضية وانفتلي ..
يا هذه الدنيا ودوري
ليعود الحق للناس الغلابى
يقف العالم مقلوباً (على رأسه) يا ناس
وقد آن الأوان ..
اقلبوا المقلوب حتى يتعدل[٢]

كما يدرك أن التغيير يجب أن يكون مدروساً، وأنه لا يأتي دفعة واحـــدة، وإنمـــا يكون على مراحل، حتى يكون أكثر ديمومة واستمرارية، وقد عبر عن هذا خير تعبير في قصيدته (نيران المجوس):

على مهلي
أشد الضوء خيطاً ريقاً،
من ظلمة الليل
على مهلي
لأني لست كالكبريت
أضيء لمرة وأموت
ولكني
كنيران المجوس: أضيء
من
مهدي
إلى
لحدي[٣]

---

(١) أشد على أيديكم، ص ٦، وانظر أيضاً، سجناء الحرية، ط٢، مطبعة أبو رحمون، عكا، ١٩٩٤م، ص ٣٦.

(٢) أنا من هذي المدينة، قصيدة (قسمة ضيزى)، ص ٨٧.

(٣) كلمات مقاتلة، ص ٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونجده يؤكد عدم إيمان الواقعية الجديدة بالأحلام والخيال والأوهام، وأن تحقيق الأهداف والأحلام إنما يكون بالعمل الدؤوب الموصول:

صموداً أيها الناس الذين أحبهم
صبراً على النوب
سواعدكم تحقق أجمل الأحلام
تصنع أعجب العجب.(١)

وهكذا نرى بوضوح من فكره أنه كان يترسم خطى مدرسته الواقعية الجديدة، ويقتفي أثرها، ويعكس مبادئها وثوابتها في أشعاره.

كما نلحظ من كل ما سبق ترابطاً قوياً مهماً بين حياته وفكره من جهة، وأشعاره من جهة أخرى، تجسد في علاقة جدلية جعلت أشعاره المعادل الفني للواقع الذي عاشه.

---

(١) أشد على أيديكم، قصيدة (أحب ولكن)، ص ٦. وانظر أيضاً في المجال نفسه: قصيدة (رمضان كريم)، ص ٨٩ من ديوانه (كلمات مقاتلة).
- وقصيدة (شيوعيون)، ص ١٠ من ديوانه (أشد على أيديكم).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

توفيق زيّاد الشاعر

إن توفيق زيّاد المنتمي إلى جيل الشعراء المخضرمين في إسرائيل[١] جيل ما بعد الحربين العالميتين[٢] واحدٌ من شعراء التيار التقدمي اليساري الذين لفتوا الانتباه.[٣]

وما يبدو عليه الأمر أنه كان يتمتع بمكانة شعرية مرموقة ضمن ثلاثية شعراء الأرض المحتلة التي تجمعه بمحمود درويش وسميح القاسم، وبين شعراء المقاومة العشرين، فقد نال حظاً واسعاً من الشهرة في العالم العربي.[٤]

فالدكتور عبد الرحمن ياغي يراه "أحد الثلاثة الذين رفعوا راية الشعر المقاوم في الأرض المحتلة، وأعلنوا التمرد في وجه الطغيان .. ولم يستسلموا للمساومة، ولم يفت السجن في عضدهم، أحد الذين خلصوا الحركة الشعرية في الأرض المحتلة من ترهلاتها وسوداويتها وخطر الانكفاء على الوجه، وحملوها توهج الجراح وبنض العواصف ومشاعل الشموس، وأبقوا على جذورهم العربية لتضرب في الأرض وتمتد لتصمد في وجه الزوابع. ويراه هو تحديداً شاعراً كبيراً[٥] وأستاذ الفن الثوري والمواقف النضالية والصمود الذي لا ينخذل".[٦]

---

(١) عبد الكريم أبو خشان، ذاكرة الزيتون: توفيق زيّاد: ١٩٢٩-١٩٩٤، فصول، مجلد ١٥، عدد ٤، ص ١٠٦.

(٢) الحركة الأدبية، ص ٦٣.

(٣) المرجع نفسه، ص ٣٢٠.

(٤) المرجع نفسه، ص ٣٢٠، وانظر أيضاً:

- د. حسني محمود - راشد حسين الشاعر من الرومانسية إلى الواقعية، الوكالة العربية للتوزيع والنشر، الزرقاء، الأردن، ص ١٥٣، ٢٣٢.

(٥) شعر الأرض المحتلة، ص ٣٤٩.

(٦) المرجع نفسه، ص ٤٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد كان لتجربته الشعرية فضل توجيه التجارب الأخرى - كتجربة محمود درويش - والأخذ بيدها للخروج من الإطار الفردي المحدود المعزول إلى الإطار الجماعي المنفتح المتفاعل[١] فنجد شعراء فلسطين الكبار أمثال (محمود درويش) و (سميح القاسم) يعترفون جهراً بأنهم تتلمذوا الشعر على يدي (توفيق زيّاد).[٢]

وهذا كله يجعلنا ندرك المكانة المتميزة التي تمتع بها توفيق زيّاد شاعراً.

والقارئ أشعار توفيق زيّاد يلمس بوضوح أنها اتخذت ثلاثة أبعاد انطوت تحت كل منها مجموعة من المضامين التي تناولها في قصائده، وتكررت عبر دواوينه الأربعة. وهذه الأبعاد هي الآتية:

- **البعد الوطني المحلي:** وهو البعد الذي عبر من خلاله عن تمسكه بأرضه، وحبه وطنه وشعبه، واهتمامه بقضايا شعبه وهمومهم، وكرهه السلطة؛ ولذلك انطوت تحته مضامين: الأرض، والوطن والمدينة، والشعب، والسلطة، والشهيد.
- **البعد القومي:** الذي حمل قضايا وطنه العربي، وأمته العربية على امتدادها؛ فغنى فيه نضال الشعوب العربية وثوراتها ضد السلطة والاستعمار، ووقوفها في وجه العدوان والطغيان. وقد مثلت هذا البعد أشعاره في مصر ولبنان والجزائر والسودان والعراق. والأمة العربية بعد هزيمة سنة سبع وستين وتسعمئة وألف ميلادية، وتصويره وحشية الاستعمار.

وقد جاء هذا كله من خلال مضموني: الأمة العربية، والاستعمار.

- **البعد الأممي الإنساني:** وهو البعد الذي حمل قضايا أممية إنسانية؛ فغنى فيه لأحوار العالم وثواره أينما كانوا، ولثورات شعوب الأرض - على امتداد أصقاعها - في سبيل الحرية، ودعا فيه إلى إحلال السلام العادل بينها، ونبذ الحروب وآثارها المؤلمة.كما دعا أيضاً إلى تحرير المرأة من الرجعية والتخلف الفكري، وغنى فيه للأطفال والطفولة رمز الحياة. عبر مضامين: الحرية، والسلام والحرب، والثورة والكفاح، والعمال، والمرأة، والطفولة.

---

(١) ذاكرة الزيتون، فصول، مجلد ١٥، عدد ٤، ص ١١٢، ١١٣.

(٢) الحركة الأدبية، ص ٤٩٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الأبعاد الثلاثة بمضامينها لا ينفصل بعضها عن البعض الآخر، وإنما يأتي الفصل تيسيراً لأغراض البحث والدرس، فهي متداخلة على مستوى البعد الواحد، مترابطة على مستويات الأبعاد الثلاثة. فمثلاً على صعيد البعد الواحد فالأرض ليست سوى الوطن، في البعد الوطني.

وفي البعد القومي فثورات الشعوب العربية ذات طابع واحد، وتستهدف الغايات ذاتها. والدعوة إلى السلام هي ذاتها الدعوة إلى نبذ الحروب، والحرية هي الثمرة الطبيعية للثورة ضد الاستعمار في البعد الأممي الإنساني.

وعلى صعيد الأبعاد الثلاثة وترابطها معاً نجد توفيق زيّاد يخاطب عمال موسكو، وعمال كوبا بفخر واعتزاز لا يقلان عنهما حين يتوجه بالخطاب لعمال شعبه، رابطاً بذلك البعد الأممي الإنساني بالبعد الوطني.

وحين ينتصر لقضايا شعبه في وجه الاحتلال، فإنه ينتصر أيضاً لشعب مصر سنة ست وخمسين وتسعمئة وألف، وشعب إيران حين أمم نفطه، رابطاً بذلك الأبعاد الثلاثة معاً.

ونستشعر التداخل ضمن البعد الواحد، والترابط على مستوى الأبعاد الثلاثة أكثر وضوحاً وجلاءً، عندما نتناول مضامين هذه الأبعاد تباعاً بالتفصيل.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البعد الوطني المحلي

جاء البعد الوطني في شعر توفيق زيّاد نتيجة طبيعية للظروف السياسية التي عصفت بوطنه من استعمار وتشريد ومحاولات لطمس الهوية الفلسطينية. وتحت هذه الظروف الصعبة لم يكن أمام توفيق زيّاد إلا أن ينغمس في وطنيته ويعبر عن التصاقه بمحليته ليتخذ من ذلك منطلقاً لقوميته و إنسانيته فيما بعد. وقد جاء هذا عبر مجموعة من المضامين يمكن إجمالها فيما يلي:

الأرض: تحتل الأرض مكاناً واسعاً متميزاً في شعر توفيق زيّاد. فأرضه هي كنزه، وكل ما يملك وتاريخه ضارب الجذور:

أرضي .. ترابي ..
كنزي المنهوب .. تاريخي ..[١]

وهي المقدسة التي تحوي قبور الأجداد، وترابها بتر وياقوت وعاج، يقسم بها الشعراء[٢] فهي أرض الإعمار والعطاء، أرض الزيتون والكروم والورود المملوءة بالخيرات.[٣]

فإذا ما سلبت اقترنت بالظلم من سحق وإبادة وتسوية للقرى بالأرض، وقتل للأبرياء، وتحولت مقابر وخرائب تنتشر فوقها اللحوم البشرية الممزقة والمشانق والصلبان.[٤] واقترنت بسوء المعاملة وملاحقة المواطنين أصحاب الأرض الشرعيين وضربهم وانتزاع سيادتهم على الأرض، في سبيل تحويلهم إلى خدم وعبيد بالبطش والبهتان.[٥]

وزالت معالم الحياة فيها، فهدمت قراها وبيوتها واقتلعت أشجارها وزهورها.

وهنا يهب توفيق زيّاد يسجل تفاصيل النكبة المأساوية على جذع الزيتونة الضاربة في الأرض والزمن التي تعمر طويلاً، لئلا ينساها:

---

(١) توفيق زيّاد – عمان في أيلول، ط٢، مطبعة أبو رحمون، عكا، ١٩٩٤، قصيدة (مرج ابن عامر / محرمات)، ص ٥٥.

(٢) الحركة الأدبية، ص ٣٦٤.

(٣) المرجع نفسه، ص ٣٥٩.

(٤) المرجع نفسه، ص ٣٥٦، ٣٥٧.

(٥) المرجع نفسه، ص ٣٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سأحفر رقم كل قسيمة
من أرضنا سلبت
وموقع قريتي وحدودها
وبيوت أهليها التي نسفت
وأشجاري التي اقتلعت
وكل زهيرة برية سحقت[١]

وصارت إنساناً يتوجع، ولكن أبناءها ماضون في الصمود في وجه المحتل، وتحديه، يحتملون الجوع والعري والقتل:

فلتسمع كل الدنيا ..
فلتسمع .. !
سنجوع .. ونعرى ..
قطعاً نتقطع
ونسف ترابك
يا أرضاً نتوجع[٢]

يرفضون الخضوع والمذلة والرحيل عنها، أو أن يصبحوا أقلية فيها في ظل الاحتلال والاستعمار:

يقول الدعيون[*] والغاصبون
بأنّا أقلية سوف تجلى
وإلا ستفنى اضطهاداً وذلاً
ولكن .. أقلية نحن؟
كلا .. ومليون .. كلا !!
فنحن هنا الأكثريه[٣]

يتجرعون الموت والعذاب والآلام من أجلها وفي سبيلها:

---

(١) كلمات مقاتلة، قصيدة (على جذع زيتونة)، ص ٤٩.

(٢) سجناء الحرية، قصيدة (سجناء الحرية / فلتسمع الدنيا)، ص ١٣.

(*) الدعيون: جمع الدعي وهو المتهم في نسبه ويعني بهم اليهود. انظر: إبراهيم أنيس ورفاقه - المعجم الوسيط، ط٢، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٢٨٧.

(٣) كلمات مقاتلة، قصيدة (كفر قاسم)، ص ٧٤، ٧٥. وانظر أيضاً:
- الحركة الأدبية، ص ٣٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

آه يا رائحة الأهل

ويا بيتاً من الطين

ويا حفنة عشب وتراب

كم علينا اليوم

من أجلكمو

أن نجرع الموت

وألوان العذاب!![١]

ويصرون على البقاء فيها، يقاتلون باسمها ومن أجلها بكل تفاصيلها:

باسم الحياة، وكل ورد الأرض، عشب الأرض،

صخر الأرض، أسلحة تقاتل.[٢]

مستعدين للتضحية عن كل ذرة تراب فيها،ولافتدائها بالأجساد والدم واللحـــم إذا عـزت أدوات القتال:

كان العبور مقدساً، والشمس في عز الظهيره.

والوجوه السمر تطعم لحمها للأرض[٣]

مدفوعين في ذلك كله بحبهم لها، الحب الذي يصل حد العبادة:

وسوى أرض بلادي

وسماء بلادي

وزهور بلادي

أنا لا أعبد شيا.[٤]

---

(١) سجناء الحرية، قصيدة (حادث ليلي)، ص ٤٩، ٥٠.

(٢) المصدر نفسه، قصيدة (العبور الكبير / العبور)، ص ٩٥.

(٣) سجناء الحرية، قصيدة (العبور الكبير / العبور)، ص ٩٤. وانظر أيضاً:
- الحركة الأدبية، ص ٣٥٤، ٣٦٥.

(٤) عمان في أيلول، قصيدة (الكلمات)، ص ٨٥، ٨٦. وانظر أيضاً:
- الحركة الأدبية، ص ٣٥٢،٣٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإذا شفهم الشوق والحنين - بدافع هذا الحب - احتملوا العذاب في سبيل العـــودة إليها:

لك يا أرض العذاب

يا بيوت الطين .. يا رائحة الأهل

ويا حفنة عشب وتراب

مثل رتل من لصوص لك كنا عائدين [١]

وآمنوا بحتمية العودة إليها، وحراستها والدفاع عنها؛ لأن الاستقلال ونيل الحريـــة حتميتان تاريخيتان قادمتان لا محالة:

يا حذر جذري !! إنني سأعود حتماً

شوق العواصف في خطاي

وفي شرايين ..

نداء الأرض .. قاهر[٢]

ونجد توفيق زيّاد هنا يتحدث كما لو كان لاجئاً أخرج من أرضه، ويحدوه الأمـــل بالعودة إليها، معبراً بذلك عن آمال اللاجئين جميعاً.[٣]

ومن خلال ما سبق كله يبدو التلازم الحاد بين ثنائية (الأرض والإنسان) جلياً فـــي شعره.

ويلفت النظر في شعر توفيق زيّاد تحول الأرض إلى أم "والأم عند شعراء الأرض المحتلة تتمثل فيها كل الأرض والوطن وحبات التراب، وكل ثنية أو حجر أو عتبة!باب أو

---

(١) سجناء الحرية، قصيدة (حادث ليلى)، ص ٤٧.

(٢) عمان في أيلول، قصيدة (مرج ابن عامر / شوق العواصف)، ص ٦٣، ٦٤. وانظر أيضاً:
- سجناء الحرية، قصيدة (سجناء الحرية / الحرية أو الموت)، ص ٨. و:
- الحركة الأدبية، ص ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦٥. و:
- راشد حسين الشاعر، ص ٢٠٢.

(٣) انظر المرجع نفسه، ص ٢٠٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ورقة شجر".[١] ويأتي اقتران الأرض بالأم لما بينهما من علاقة تقوم على الإخصاب والإنجاب، حيث تشترك الاثنتان في رعاية الأبناء.[٢]

والأرض عند توفيق زيّاد هي الأمّ التي تخرج المناضلين وتنبتهم كالنبات:

إذا هوى مضرجا
على الثرى مناضل
تنبت هذي الأرض عشرة مكانه[٣]

وهي مهوى الفؤاد والروح؛ لذلك يجب الحفاظ عليها وعلى ما تضمه من قبور أبنائها:

إن هذي الأرض كانت دائماً مهجته
إنها كانت، وما زالت
لعواد الأماره .. أمه .. أمته
فاحفظوها .. واحفظوا القبر الذي غيبه[٤]

وحين يتعامل توفيق زيّاد مع الأرض كوكباً عادياً، فإن دورانها عنده هو ديناميكية الحياة، وحركة التاريخ وتغير الأحوال لصالح قوى الخير والمحبة[٥]:

الأرض تدور
دولاب التاريخ يدور
لا شيء يسد طريق النور
مضت الأيام وجاءت أيام
وتعرت كل الأوهام
لو كنت تعيش
لرأيت بعينيك محكمة التفتيش
تذروها الريح كحفنة ريش[٦]

---

(١) شعر الأرض المحتلة، ص ٤٠٠.
(٢) الحركة الأدبية، ص ٣٦٦، ٣٦٧.
(٣) سجناء الحرية، قصيدة (نخلتنا تطلق من جديد)، ص ٦٥.
(٤) كلمات مقاتلة، قصيدة (مقتل عواد الأمارة)، ص ٢٦، ٢٧.
(٥) الحركة الأدبية، ص ٣٦٨.
(٦) كلمات مقاتلة، قصيدة (غاليليو)، ص ٥٣، ٥٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الوطن : وطن توفيق زيّاد في عينه هو الأجمل، فهو منارة الكـــون، ودوحـــة النســـب العريق، هو المعبود على امتداد تضاريسه وتنوعها في كل وقت، المحفورة صورته فـــي القلب، هو الأحلى والأغلى باستمرار:

- بلادي تبقين في الكون

نجماً معلى

وتبقين دوحة عز

فروعاً وأصلا

- بلادي عبدنا ربوعك

طوداً وسهلا

نقشناك في دفتر القلب

فصلاً ففصلا

- عبدناك صحوة فجر

وشمساً وظلاّ

- بلادي .. بلادي

لياليك بالنصر حبلى

وأنت التي كل يوم

تصيرين أحلى

وأنت التي كل يوم

تصيرين أغلى[١]

وهو إذ يعبر عن وطنه بكلمة (بلادي) فإنه يكررها غير مرة لما فيها من نســـبة البلاد إلى ياء المتكلم مؤكداً بذلك ارتباطه الوثيق بوطنه.

---

[١] أنا من هذي المدينة، قصيدة (أماماً وأعلى)، ص ١٩-٢٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كذلك الوطن عنده هو المفتدى، والأماني العذاب، والوجـــد، وأسـباب الحيـاة، والشوق والحنين.

ويربطه بالأرض بعلاقة وثيقة تقوم على التلازم، معبراً عنه بكلمة (بلادي) ثانية، مبيناً أنهما وجهان لعملة واحدة، فالوطن هو الأرض، والأرض هـــي الوطـــن الحـــاضر والمستقبل، مسقط الرأس ومحل الموت، الدم واللحم، ومهوى الفؤاد الساكن في الضلـوع. والأهل، والعلو، والصمود والتحدي، وهو الذي يهيم به أبناؤه عشقاً:

وطني أنت المفدى
والأماني التي تقطر شهداً
وطني الحرقة والوجد الذي
يأكل عمري
والهوى والضوء في عيني
والشوق الذي يملأ صدري
هذه الأرض بلادي
حاضري .. مستقبلي .. مهدي ولحدي
ودمي .. لحمي .. فؤادي .. أضلعي
وهي أمي وأبي
بيتي العالي وعنوان التحدي
وأنا بركان عشق للوطن[١]

ومن هنا نلحظ الترابط الوثيق في شعره بين الأرض والوطن.

والوطن عنده دائم الحضور في كل مظهر من المظاهر التي تبعث الحياة، وكـــل زمان ومكان، في الجراح والشظايا وصور القتلى وإصرار الشهداء وساحات القتال:

---

(١) أنا من هذي المدينة، قصيدة (أتحدى)، ص ٢٣-٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مثلما كنت ستبقى يا وطن

حاضراً في ورق الدفلى

وعطر الياسمين

حاضراً في التين والزيتون

في طور سينين

حاضراً في البرق والرعد

وأقواس قزح

حاضراً في الشفق الدامي

وفي ضوء القمر

حاضراً ..

كل زمان ..

كل حين

حاضراً في كل جرح

وشظيه

حاضراً في صور القتلى

وعزم الشهداء

حاضراً في كل ميدان وساح.[١]

ويصر على الحضور الدائم للوطن، حيث يكرر كلمة (حاضراً) ثماني مرات مؤكداً هذا الحضور.

وكما هي الأرض مقدسة عند توفيق زيّاد، فالوطن عنده مقدس أيضاً:

---

(١) انا من هذي المدينة، قصيدة (كلمات للوطن)، ص ١٢، ١٤، ١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كان العبور مقدساً، ومقدساً يبقى

وكان مقدساً،

ومقدساً يبقى الوطن.[١]

فإذا ما سلب الوطن واستعمر واحتل أصبح إنساناً: فتاةً مصلوبةً منسيةً، مسـبية، تسيل دماؤها، باكية مقهورة، مستعبدة مسلوبة الحرية، مؤطرة بأدوات الحرب:

على الصلبان منسية

بلادي زهرة الدنيا، وعود الند

عروس في زمان السلم مسبية

دماياها حماياها، ودمع القهر فوق الخد

أحاطوها بأسلاك العبودية

وشادوا بينها سدا وبين الشمس ..

شادوا سد

ولفوها بزنار من البارود[٢]

وأصبحت فلسطين مثخنة بالجراح:

أنادي جرحك المملوء ملحاً، يا فلسطيني[٣]

وإذا ما حل الاحتلال في الوطن ترافقت جراحات الوطن وقيوده بتشريد شعبه:

- لنا وطن أثخنته الجراح

وروع طيره ذات صباح

وصار كسيرا مهيض الجناح

لنا وطن راسف في القيود

- وشعب تشرد عبر الحدود[٤]

---

(١) سجناء الحرية، قصيدة (العبور الكبير/ العبور)، ص ٩٥، ٩٦.

(٢) أشد على أيديكم، قصيدة (رجوعيات / مساكين)، ص ٤٤.

(٣) المصدر نفسه، قصيدة (رجوعيات / السكر المر)، ص ٤٢.

(٤) كلمات مقاتلة، قصيدة (كفر قاسم)، ص ٧٦، ٧٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيزداد جمالاً في عيون أبنائه المشردين ليصبح جنتهم

حبيبة قلبي

سننعم ليلتنا البكر

في الخيمة

بعيدين عن وطن النور

عن جنتي[١]

ويهبون يحمون ترابه، ويدافعون عنه بكل الوسائل المتاحـــة - حتـــى أســـنانهم - ويتمسكون به لا يرضون عنه بديلاً، ويصنعون الظروف التي تتيح عودة أبنائه المشردين إليه، حتى لو بذلوا أجسادهم ولحمهم في سبيل ذلك، وينتظرون عودة أحبائهم المشـــردين بالفرح وكل الحب:

- بأسناني

سأحمي كل شبر من ثرى وطني

ولن ارضى بديلاً عنه

- أحبائي

برمش العين

أفرش درب عودتكم

برمش العين

- ومن لحمي ..

سأبني جسر عودتكم

على الشطين

- أحبائي

أنا بالورد والحلوى

وكل الحب أنتظر[٢]

---

(١) كلمات مقاتلة، قصيدة (أغنية زفاف)، ص ٩٧.

(٢) أشد على أيديكم، قصيدة (رجوعيات/بأسناني، وجسر العودة ، والمصلوب)، ص ٤٦، ٤٨، ٤٩، وانظر أيضاً القصيدة نفسها مقطوعة المصلوب، ص٥٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويحتملون المشاق والصعاب في سبيل بنائه وإعماره، وتغيير واقـــع الاحتـــلال المقيت إلى التحرر الأحلى والأجمل، يمشون في النار، ويبذلون الغالي والنفيس لإعـــلاء شأنه، وفي سبيل سموه وعزته على مدى الأيام:

نحن أصحابك فابشر يا وطن

نحن عشاقك فابشر يا وطن

ننحت الصخر ونبني ونعمر

ونلوك القيد حتى نتحرر

نجمع الأزهار والحلوى

ونمشي في اللهيب

نبذل الغالي ليبقى

رأسك المرفوع .. مرفوعاً

على مر الزمن[١]

ويفتدونه بالأرواح جيلاً بعد جيل، وهم في ذلك سواء صغاراً وكباراً، في ســـبيل إعلاء شأنه والارتقاء به:

بلادي .. نفديك بالروح

شبلاً فشبلا

ونمشي كعاصفة النار

شيخاً وطفلاً

ليبقى لواؤك

فوق السماك وأعلى[٢]

---

[١] أنا من هذي المدينة، قصيدة (كلمات للوطن)، ص ١٥، ١٦.

[٢] المصدر نفسه ، قصيدة (أماماً وأعلى)، ص ١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كل هذا بدافع حبهم وطنهم، هذا الحب الذي يدفعهم إلى الموت في سبيله آلاف المرات، ويغذي فيهم الإصرار على البقاء لأجله، فيصبح قوتهم إصراراً على الحياة والتجدد فيه:

حطوا في عنقي
حبل المشنقة الأسود
حطوا بدني المقتول
في لحد داخل لحد
فأنا
من شدة حبي لبلادي
لا أفنى وأموت
لكن أتجدد ..
دوماً أتجدد
سأظل إلى أبد الآباد
أتجدد في وطن الأجداد[١]

إنه الحب الذي يدفعهم إلى التعمد في النار، وإراقة دمائهم حفظاً لكرامتهم، وإحياء لوطنهم:

لكنني قلب تعمد في اللظى
ودم يراق على حياض كرامتي
يحيا به الوطن الحبيب ويزهر[٢]

---

(١) سجناء الحرية، قصيدة (سجناء الحرية / في كل شيء أعيش)، ص ١٦، ١٧، ١٩.
- وانظر أيضاً: الحركة الأدبية، ص ٣٦٥.

(٢) أشد على أيديكم، قصيدة (شيوعيون)، ص ٩.
- وانظر أيضاً حب الوطن في المصدر نفسه، قصيدة (ملتقى الدروب)، ص ٧٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإذا ما استمروا على نهج الكفاح السابق، تحرر الوطن من الاحتلال الغـــاصب، وأصبح المحتل ذكرى، وأصبحت الحياة أحلى:

سأغنّي..
في كل مكان، ومكان ..
"وطني محتلاً كان
وطني - أصبح حراً
والمحتل الغاصب - كان
واليوم،
تحوّل
ذكرى .. !!"[١]

ونلاحظ هنا أن توفيق زيّاد يعبر عن تحرر وطنه بصيغة الماضي، لإيمانه بـــأن التحرر أمر مقضي لا محالة.[٢]

وإذا ما تحرر الوطن عاد إليه أبناؤه يحتضنهم ويمنحهم الحرية، ويعمرونه بالحياة، يبنونه ثابتين على مبادئهم، ويصنعون تاريخه المشرق ومستقبله الأجمل، فيصبح عندهـــا عامراً بالحب والإيمان والأمل، تماماً كقلب الأم:

يا أم لي وطنٌ كقلبك عامر
بالحب والإيمان والأمل الوثيق[٣]

ونرى توفيق زيّاد يربط وطنه بأبنائه ذلك الشعب المشرد المغترب عن أرضه:

وطني يسكن في جرحي،
وفي جرحي،
ذاك اللاجئ المغترب[٤]

---

(١) سجناء الحرية، قصيدة (سجناء الحرية/ القريب الآتي)، ص ٢٥.
(٢) أنظر الحركة الأدبية، ص ٣٦٠.
(٣) عمان في أيلول، قصيدة (يا أم)، ص ٩٢.
(٤) سجناء الحرية، قصيدة (عن العليق والسنديان)، ص ٧٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وثانيةً يربطه بالأرض مؤكداً التلازم بينهما، ويربطهما معاً بعنصر ثالث يتوسط بينهما ويجمعهما معاً من خلال مظاهره الجميلة ألا وهو الحياة. معبراً بذلك عن شدة حبه وطنه وأرضه وحياته. فهو يحب الحياة ويكره الموت لا حزناً أو حسرة أو خوفاً منه، وإنما لأنه لن يعود قادراً على حب وطنه وأرضه، فحبه حياته إنما كان لأنها تربطه بوطنه وأرضه، وتبقيه قادراً على حبهما:

من شدة حبي سأموت

إن يوماً سأموت

لا حزناً أو حسره

لكن ..

من شدة حبي

من شدة حبي

- لك يا وطني المحتل

- لك يا زهرة فل

- لك يا قطر طل

- لك يا أرضاً

تدفع من دمها

آخر قطرة

حتى تصبح ... حرة ...[١]

المدينة: ترتبط المدينة في شعر توفيق زيّاد ارتباطاً وثيقاً بالوطن ولم يكن ذلك محض صدفة، فالمدينة عنده هي الوطن الأصغر والأغلى الذي ينتمي إليه الإنسان انتماءً مباشراً، وهي الأكثر التصاقاً به. هي رمز التحدي، وساحاتها ساحات الكفاح وقتال الشوارع:

---

(١) سجناء الحرية ، قصيدة (سجناء الحرية / شدة الحب)، ص ٢٠، ٢٢، ٢٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أنا من هذي المدينه

وطني الأصغر والأغلى

وعنوان التحدي

قمّ شمّ وساحات كفاح

وإطارات لهب

واشتباكات شوارع[١]

والمدينة التي يعنيها هي مدينة الفقراء الكادحين الذين يصنعون الثـــورة، المدينـــة الصامدة المناضلة، ولذلك فهو لا ينتمي إلى مدينة بعينها، بل إلى كـــل المـــدن العربيـــة المقاتلة المناضلة:

- أنا من هذي المدينه

من حواريها الحزينه

من شرايين بيوت الفقر

من قلب الثنيات الحصينه

- أنا من شارع "يوم الأرض"

من "دوار أيار"

ومن ساحات "صبرا" و "شاتيلا"

والزقاقات التي

لا تجرؤ الشرطة أن تدخلها

عندما يشتعل الناس غضب .. !![٢]

---

[١] أنا من هذي المدينة، قصيدة (أنا من هذي المدينة)، ص ٣٠.

(٢) المصدر نفسه، القصيدة نفسها ، ص ٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونلاحظ هنا أنه في حديثه عن المدن العربية يخصصها ويحددها بـــالمدن التـــي عاش فيها شعبه، وشهدت نضاله ومآسيه، فصحيح أن (صبرا) و (شاتيلا) في بـــيروت، لكنهما شهدتا نضال الشعب الفلسطيني ومذبحته المأساوية.

ويخرج توفيق زيّاد من هذا الإطار شيئاً فشيئاً ، لينطلق قومياً إلى المدن العربيـــة الثائرة الصامدة أينما كانت.

فأم درمان المدينة السودانية تناديه ثائرة ملؤها الأمل والعزيمة :

" أم درمان .. " تناديني ..
وفي قبضتها ، سيف معطر
" أم درمان " أيا حبي الجديد
فرحتي
فرحة من أصبح
في
حب
جديد [١]

وها هي بغداد تعود عربية خالصة بعد ثورة شعبها على السلطة :

بغداد ما عادت فراش دعارة
للإنجليز وكل مرتزق حقود
بغداد أضحت غادة عربية
سفرت تصب السحر في سمع الوجود
شطآنها خمر الكفاح وكأسها
عين الزمان ودفها خوذ الجنود
وشرابها دم الملوك وشبهه
و " رعاعها " ندمانها السمر الخدود[٢]

---

[١] سجناء الحرية ، قصيدة (حبيبتي أم درمان)، ص ٥٢، ٥٤ .

[٢] أشد على أيديكم ، قصيدة (فهد)، ص ٨٧، ٨٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما بور سعيد المدينة المصرية ، فمدينة الزحف والرعب القاتل للمستعمر :

يا بور سعيد ولاسمها تكبيرة

في الخافقين تفك عقدة أبكم .. !!

أفديك أفدي الزاحفين على اللظى

شيباً أعيدوا للصبا المتقدم

يا بور سعيد وأنت رعب قاتل !!

للزاردين القيد حول المعصم [١]

ونلحظ هنا أن بور سعيد مدينة الشعب الزاحف بشيوخه ، وهكذا يظهر التداخل ضمن البعد القومي بين الشعب والمدينة .

الشعب: أحب توفيق زيّاد شعبه وارتبط به. ولما كان قد نشأ في أسرة كادحة عاملة، فقد تعلق بالعمال، عاش حياتهم، وفهم لغتهم وأحبهم، فكانت علاقته مميزة بعمال النظافة وصغار الموظفين، يشعرهم دائماً بقيمتهم بشراً، ولهم يغني[٢] فأصبح الشعب عنده ليس سوى العمال والناس البسطاء الذين أحبهم درجة التقديس:

وسوى الشعب الكادح

والناس البسطاء العاديين

لست أقدس شيأً[٣]

وانتمى لهذا الشعب فكراً ولساناً، فكان يخطب فيهم في المناسبات المختلفة التي تخصهم[٤]، فهو ابنهم ابن الشعب ومن صلبه:

---

[١] أشد على أيديكم ، قصيدة (بور سعيد)، ص ٥٦، ٥٧ .

[٢] انظر في هذا المجال: - السيرة الذاتية، ص ٤، ١٩.

- في ذكرى الأربعين، ص ١٥، ٣١.

[٣] عمان في أيلول، قصيدة (الكلمات)، ص ٨٦.

[٤] انظر في هذا المجال: في ذكرى الأربعين، ص ٣٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأنا أقتحم السبع السماوات
بحبي لك ..
يا شعب الماسي المسرفة
فأنا .. ابنك .. من صلبك
قلباً،
وضميراً،
وشفه[١]

وناضل واحتمل عذاب السجن وقيود الظلم، وقاسى الجوع والحرمان في سبيل شعبه، كي يستعيد حقوقه:

يا شعبي .. !!
يا عود الند .. !!
يا أغلى من روحي عندي
لم نرض عذاب الزنزانة
وقيود الظلم وقضبانه
ونقاسي الجوع وحرمانه
إلا لنفك وثاق القمر المصلوب
ونعيد إليك الحق المسلوب
ونطول الغد من ليل الأطماع[٢]

وكافح من أجله، وآمن به إيماناً راسخاً، ووثق به ثقة تامة[٣]:

إنما أملك إيماني الذي لا يتزعزع
وهوى .. يكتسح الكون لشعب يتوجع[٤]

---

[١] سجناء الحرية، قصيدة (مليون شمس في دمي)، ص ٤٤.
[٢] أشد على أيديكم، قصيدة (سمر في السجن)، ص ٣٧.
[٣] انظر في هذا المجال: - السيرة الذاتية، ص ١٩.
- في ذكرى الأربعين، ص ٣١.
[٤] كلمات مقاتلة، قصيدة (الذي أملك)، ص ١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فأحبه أبناء شعبه و آمنوا بصدقه، و اقتنعوا بأقواله[١] فدفعوه إلى الصمود، و شحذوا عزيمته:

لي من هوى شعبي
ومن حب الكفاح، ومن صمودي
عزم تسعر في دمي[٢]

وشعب توفيق زيّاد الذي يحبه هذا الحب الكبير، شعب اجتمعت فيه المآسي، فـــهو شعب معذب مأخوذ بالعذاب عقله:

ماذا تقول الريح
يا شباكي المفتوح
عن شعبي الذي
تركته سكران بالعذاب[٣]

جروحه عميقة:

- لن يحبسوا حباً لشعب
ضارب في كل ناح
- شعب يقلبه الطغاة على
فراش من جراح[٤]

يذبحه مجرمو الاحتلال يوماً بعد يوم:

هتاف الضحايا يشق القبور
هتاف يهز الفضاء الكبير:
"هو الشعب يذبحه المجرمون"[٥]

حزين باك ممزق القلب لفقده أبناءه:

---

(١) انظر في هذا المجال: - السيرة الذاتية، ص ٤.
- في ذكرى الأربعين، ص ١٥.
(٢) أشد على أيديكم، قصيدة (من وراء القضبان)، ص ١١.
(٣) سجناء الحرية، قصيدة (شباكي وأنا)، ص ٥٩.
(٤) أشد على أيديكم، قصيدة (من وراء القضبان)، ص ١٨.
(٥) كلمات مقاتلة، قصيدة (كفر قاسم)، ص ٧٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يا أصدقاء كفاحنا

شعبي يعيش على الدموع

الجرح فوق الجرح

في القلب الممزق والضلوع[١]

رزح بعضه تحت نير الاحتلال، فأراد المستعمر إذلاله، وشرد بعضه الآخر:

- يا شعبي الذي يريده الطغاة

أن يقبل النعال

- أحب شعبي الذي أرهقه التجوال[٢]

فاستعبد مشردوه:

من المشردين في الجبال والسهوب

من الذين شققت ظهورهم

سياط الاستعباد[٣]

ويزداد حب توفيق زيّاد لشعبه، لأنه رغم معاناته وجراحه وعذابه ومآسيه، شعب وفي يحفظ عهود أبنائه السجناء:

ستعود لنا .. لي، ولأمي

وأخي، والجدة، والجد

للشعب

الحافظ ..

للعهد ..[٤]

---

[١] أشد على أيديكم، قصيدة (المناشير المحترقة)، ص ٢٩، ٣٠.

[٢] المصدر نفسه ، قصيدة (إليكم)، ص ٧٦، ٧٧.

[٣] المصدر نفسه، قصيدة (ملتقى الدروب)، ص ٧٠.

[٤] كلمات مقاتلة، قصيدة (رسالة إلى سجين)، ص ٩٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ورغم ما يعانيه من الأسر والقيود شعب حر لا عبيد فيه:

وحطوا شعبنا في القيد

ولكن

ليس فينا عبد[١]

عزيز أبي لا تنحني رقابه يرفض الذل والهوان، قوي متفائل مؤمن بالأمل، ساع إلى التحرر، وصنع الغد الأجمل والمستقبل المشرق:

عن شعب لم يحن الهامة للظلام

عن عزم يتوثب

في وجه الشعب الأسمر

عن أمل في عينيه يتنمر

عن بسمته الأقوى من جور الأيام

عن يوم فيه يشب ويكبر[٢]

مفكر واعٍ على جرائم السلطة:

- هل يحسبون الشعب

لا عقلاً يفكر .. لا عيون ؟

- ليسوا هم الشعب الذي

بلسانه يتكلمون[٣]

يدفعه إيمانه بالأمل، ووعيه إلى التحرر من خوفه وهمومه:

للشعب المتحرر من خوف

الحاضر والمستقبل

وهموم الدنيا والدين[٤]

---

(١) أشد على أيديكم، قصيدة (رجوعيات / مساكين)، ص ٤٤، ٤٥.

(٢) المصدر نفسه، قصيدة (سمر في السجن)، ص ٣٤.

- وانظر أيضاً قصيدتي: (نشرة أخبار)، ص ١٦٧-١٦٩.

- و (من وراء القضبان)، ص ١٦ من الديوان نفسه.

(٣) المصدر نفسه ، قصيدة (إلى عمال موسكو)، ص ٢٧.

(٤) سجناء الحرية، قصيدة (سجناء الحرية / القريب الآتي)، ص ٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيتشبث بأرضه ووطنه رافضاً الرحيل عنهما: أنا قادم

من دون آخر

حيث البحيرات التي

أمواجها أعلام شعب

لن يهاجر[١]

ويقف مثابراً مصراً على حماية وطنه من الاستعمار، ويكافح من أجل ذلك رغم ويلات الحرب:

أي شيء

يقتل الإصرار

في شعب مكافح؟!

أي حرب

قدرت يوماً، على

سرقة أوطان الشعوب؟![٢]

وتدب فيه الحياة فيقف شامخاً منتصباً صامداً يتحدى المحتلين أعداء الإنسانية، مطلقاً العنان لصوته يرتفع عالياً في وجه السجان. وهنا يؤكد توفيق زيّاد ثانيةً أن شعبه هو العمال الكادحون، مؤكداً إنسانية هذا الشعب الذي كثرت محاولات الاحتلال لتشويه صورته وإظهاره بمظهر الإرهابيين والمرتزقة:

فارفع صوتك يا شعبي الحي

يا عامل ..

يا كادح ..

يا إنسان .. !

ارفع قامتك المنتصبة

تتحدى أعداء الإنسان

---

[١] عمان في أيلول، قصيدة (مرج ابن عامر / الظاهرة والعمق)، ص ٦١.

[٢] كلمات مقاتلة، قصيدة (ست كلمات / ثلج على المناطق المحتلة)، ص ٥.

- وأنظر أيضاً قصيدة (أشد من المحال) ، ص ٤٥ من الديوان نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وارفع صوتك

في وجه السجان[١]

ويشد توفيق زيّاد من أزر شعبه الكادح فيدعوه إلى الاتحاد:

ألا اتحدوا أيها الكادحون[٢]

ويحييه تحية الفخر والإكبار والاعتزاز على كفاح أبنائه واتحادهم وإبائهم، ويدعوهم إلى الثورة مبيناً لهم أنه واحد منهم يشاركهم ثورتهم العادلة ضد الظلم والطغيان:

- تحية الإباء والتمرد

لشعبنا المكافح الموحد

- الذل لن يعيش فوق أرضنا

فإننا عليه لم نعوّد

- إذا طغى الظلام نحن ثورة

ومارج من اللهيب في اليد[٣]

ويؤكد لزعماء السلطة أينما كانوا أن الثورة يصنعها الشعب باتحاده ووعيه ويرويها بدمه:

هل يعرف بعض الزعماء

أن الثورة لا يصنعها هم

في غرف العمليات

بل يصنعها

الشعب المتحد .. الواعي - بالدم

في الشارع والساحات؟؟[٤]

يصنعها الكادحون الحفاة العراة الجياع:

---

[١] سجناء الحرية، قصيدة (سجناء الحرية / افتح بابك)، ص ١٥.

[٢] كلمات مقاتلة، قصيدة (كفر قاسم)، ص ٧٣.

[٣] أشد على أيديكم، قصيدة (تحية)، ص ١١١-١١٣.

[٤] عمان في أيلول، قصيدة (عمان في أيلول / أسئلة لا بد منها)، ص ٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عصرنا عصر كفاح وصراع

فيه للثوار أقوى منطق

غضب الحافون فيه والجياع

والتقى الأحرار عند المشرق[١]

ولما كان توفيق زيّاد مؤمناً بالعمل الجماعي، فقد خلط قلبه بقلوب الجماعة، واندمج معهم في نبض واحد، وتجارب واحدة، وسبيل واحدة، واستهدف معهم الغايات ذاتها، فهو لا يؤمن بسلوك السبيل وحده، إنما يؤمن بالجماعة وبالسير الجماعي لبلوغ الغايات[٢] .

ومن هنا شارك شعبه الكفاح:

أنا لست من صلب الطغام[*] لكي أرى

شعبي تقدم في الكفاح وأدبر[٣]

فالتف حوله رفاقه، وتحول شعبه المكافح إلى جنود متمرسين:

حولي الرفاق، كأنهم ..

لهب تمنطق بالحديد

عشرون من شعب

تحول في الكفاح إلى جنود[٤]

وفي أوج المعركة ينادي توفيق زيّاد المستعمر الغاصب مخبراً إياه بقرب نهايته على يدي الشعب:

أيها الغاصب

هذي ساعة الصفر نراها ..

قدراً يقترب

---

[١] عمان في أيلول، قصيدة (موشح)، ص ٨٧.

[٢] أنظر شعر الأرض المحتلة، ص ٣٤٩، ٣٥٠.

[*] الطغام أرذال الناس وأوغادهم. انظر: لسان العرب، مجلد ١٢، ص ٣٦٨.

[٣] أشد على أيديكم، قصيدة (شروعيون)، ص ٨،٩.

[٤] المصدر نفسه ، قصيدة (من وراء القضبان)، ص ١٢، ١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قبضات الشعب

فولاذ على عنقك مشدود

فأين المهرب؟[١]

ويخبر شعبه الذي ثار وقدم التضحيات أن حقه لن يضيع أبداً:

ما ضاع حق

خلفه عيناك

يا شعب الأضاحي[٢]

وأنه سينتصر وينال حريته، ويعود مشردوه إلى بيوتهم المهدمة يبنونها من جديد، رافعين رايات النصر رغم ما عانوه وقاسوه:

سيعود شعبي في ضياء الشمس

من خلف الحدود

سيعود للطل المهدم

يبنيه من جديد

سيعود للأرض الحبيبة

للزنابق، للورود

سيعود

رغم النار، والأغلال

خفاق البنود[٣]

---

[١] سجناء الحرية، قصيدة (عن العليق والسنديان)، ص ٧٥، ٧٦.

[٢] أشد على أيديكم، قصيدة (من وراء القضبان)، ص ١٩.

[٣] المصدر نفسه ، القصيدة نفسها ، ص ٢٠، ٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد كانت حساسية توفيق زيّاد بالغة لهموم الجماعات[١] فراح يعبر عن هموم شعبه في حياته اليومية، ويتناول قضاياه الوطنية[٢] منددا بالسياسة الحكومية الرسمية التي تتبعها سلطات الاحتلال مع شعبه، خصوصاً الضرائب الباهظة التي تفرضها عليهم[٣] وما تحمله من ظلم يقع على العرب الفقراء الكادحين ليفرض عليهم حياة الفقر والعوز[٤]:

ضرائب من كل لون وجنس

تلص من الجيب آخر فلس

وتترك أطفالنا جائعين

يهيمون بين المزابل .. يلتقطون

نفايات ما يأكله المترفون[٥]

وهكذا تميز توفيق زيّاد بتأكيده المهمة السياسية للشعر، وجعله واحداً من أسباب النضال السياسي للدفاع عن حقوق شعبه تحت سطوة الاحتلال، وبالتلازم الحاد بين الكلمة والفعل.[٦] وبذلك أصبح الأشد التزاماً وتعلقاً بالجماهير، والأكثر انتماءً إلى القضية الوطنية في أبعادها السياسية.[٧]

---

(١) شعر الأرض المحتلة، ص ٣٥٠.

(٢) في ذكرى الأربعين، ص ٣٦.

(٣) الحركة الأدبية، ص ٤٠٢.

(٤) راشد حسين الشاعر، ص ١٩٩، ٢٠٧.

(٥) أشد على أيديكم، قصيدة (ضرائب)، ص ١١٤.

(٦) ذاكرة الزيتون، فصول، مجلد ١٥، عدد ٤، ص ٩٩.

(٧) شعر الأرض المحتلة، ص ٣٥٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السلطة : توفيق زياد من أشد كتاب التيار الماركسي جرأة على السلطة الإسرائيلية بحكم منصبه وشهرته العالمية والتفاف الجماهير حوله، فقد كان رئيساً للبلدية، وعضواً في البرلمان، إضافةً إلى جرأته وقوة شخصيته. لذلك لم يترك مناسبةً إلا وهاجم فيها سياسة حكام إسرائيل القائمة على العنصرية[١] ، ومن هنا فقد كره السلطة وهاجمها، وطالبها بالمساواة بين العرب الذين يحملون الجنسية الإسرائيلية واليهود :

يا طغمة أسقيتها
كأس المذلة ، من قصيدي
وبصقت ملء عيونها
حقدي على عيش العبيد[٢]

ولم يأت كرهه السلطة من فراغ، فهي العدو الأكبر للشعب الذي احبه، وأمن به ، ووثق بقدراته، وانتمى إليه، وشاركه الكفاح والنضال ، وسلك معه السبيل . فهي التي تستبد بالشعب، وتتجبر به ، وتوظف أتباعها وعملاءها وأجراءها لسرقة خيراته ونهبها :

وأكتاف شعب بأثقاله حانيه
تفكر في الحاكم المتمادي بعسفه
وجاسوسه المستبد بسيفه
ومختاره ،
وأحباره،
وتجاره،
وأشراره،
وسماره،
وكل بني عاره
يلصون خيراتها الغاليه [٣]

---

[١] الحركة الأدبية ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

[٢] أشد على أيديكم، قصيدة (من وراء القضبان)، ص ١١، ١٢

[٣] كلمات مقاتله ، قصيدة (كفر قاسم) ، ص٦٧

- وأنظر أيضاً في هذا المجال : راشد حسين الشاعر ، ص ٢٤٢، ٢٤٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتمتد السلطة قومياً على الصورة نفسها، فهي عنده مكروهة دائماً أينما كانت بما في ذلك السلطات العربية. ويؤكد هذه الوجهة أنه عندما يخاطب (سادته) حكام العرب يكشف لهم أفعالهم المشينة، مبيناً أنهم الذين يسرقون فرح الشعب، ويرتكبون الفضائح المخزية، ويكونون سبباً في موت أبناء الشعب عندما يشجعون الحروب:

- ما رأيكم في الوطن الذي
ملأتم ربوعه مقابر .. ؟ !
أطفأتم في كل قلب جذوة الفرح
سرقتم النبيذ والملح وأقواس قزح
- ألستم الذين تنشرون في أجوائنا العفونه
ألستم الغرقى - الى الأذنين - في
مستنقع الفضائح المشينه ..؟ !
- يا سادتي .. حولتموا بلادنا مقابر
زرعتم الرصاص في رؤوسنا، نظمتم المجازر[1]

ويبين لسادته متسائلاً أنهم لا يختلفون عن سلطات الاحتلال، فهم يزرعون الكره والحقد والحروب في رؤوس الشعب ، تماماً كما تزرعها سلطات الاحتلال في عقول الشعب اليهودي :

يا سادتي
أعرف أسطوانة " العداء لليهود "
لكنني أسألكم :
من الذي يرسلهم ليقتلوا على الحدود !
من الذي ينحت في رؤوسهم
عقلية العبيد
من الذي يجعل مستقبلهم
معلقاً بالنار والحديد ؟! [2]

---

[1] سجناء الحرية، قصيدة (يا سادتي)، ص ٨٠، ٨٢، ٨٣ .

[2] المصدر نفسه، القصيدة نفسها، ص ٨١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبرز توفيق زيّاد فضائح السلطة ممثلة بعمالة الاستعمار فها هي ومصـــر فـــي أوج أزمتها تواجه العدوان الثلاثي - ها هي تعود عميلة للاستعمار، ممثلة بعبدة الحكم الأذلاء، مـن الحكام. ورجالهم ، يتبعون المستعمر يحركهم كيفما شاء في سبيل الـــترف والمـــال، ينشـــدون العهر ويبيعون البلاد، ويستبدون بالشعب، ويســـرقون قوتـــه، ويذبحـــون أبنـــاءه، ويـــهدمون منجزاته، ويهدفون الى تركيعه ، متعاونين مع الأعداء في سبيل المحافظة على الزعامة :

من حولهم نفر على غير الخنا

والذل، طول حياته لم يفطم

"متأمركون " " مونجلون " كأنهم

أحجار شطرنج بكف معلم

الميتون ضمائراً وسرائراً*

ثمناً لعيش باذخ متنعم

ومخنثون العهر ملء بيوتهم

من كل محفوف الحواجب والفم

بصموا على بيع البلاد وشعبها

وقناتها وضفافها بالأبهم

ملك وحاشية وشبه وزارة

من كل موسوم القفا ومعلم [1]

ويترسم توفيق زياد مبدأ مدرسته الواقعية الجديدة في رؤية النقيضين عندما يقارن بيـن حياة أبناء السلطة وأبناء الشعب مبيناً الفرق الواسع ، والهوة الكبيرة بينهما منذ الصغـــر حتـــى الكبر، ليخلص بذلك إلى أن السلطة والشعب ضدان لا يلتقيان أبداً، فهما دائماً علـــى طرفـــي نقيض .

---

* الأصل ضمائرَ وسرائرَ وصرفت للضرورة الشعريّة .

[1] أشد على أيديكم، قصيدة (بور سعيد / وأجراء)، ص ٥٣، ٥٤ ، وانظر أيضاً قصيدة (أيخمان)، ص ١٢٣، ١٢٤ من الديوان نفسه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لهم النعمة ، والهم لنا والجوع والطاعون
والموت لنا
سدة الحكم لهم
والتيه لنا والسجن والقيد
يولد الواحد منهم مثل بطيخة صيف
كله لون وسكر
إنما نحن فلا نولد إلا مثل
عود القصب الناشف ..
نأتي ونولي شاحبين
لهم الأرض لهم ما فوقها .. ما تحتها
ولهم حق اللصوصية ..
لهم الفتوى وحق النقض والإبرام والرشوة
لهم الشرطة والقانون والمحكمة العليا
ولنا حق الخضوع
ليس إلا أن نطيع
لهم الليزر والفولاذ في الجو
وقرار الحرب مقصور عليهم
أما لنا فالحق أن نقتل في الحرب
كلما ازدادوا غنى وامتلؤوا
ازدادوا شهية
كلما ازدادوا غنى وامتلكوا
ازدادوا شراسة
كلما ازدادوا غنى واستشرسوا
ازدادوا جريمة
إن هذي قسمة ضيزى[١]

(١) أنا من هذي المدينة ، قصيدة (قسمة ضيزى) ، ص ٧٤، ٧٥، ٧٧-٨٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنها مقارنة كلها متناقضات من خلال مجموعة من الصور كل منها تناقضها التي تليها وهكذا.

ويبين من خلال هذه المقارنة أو القسمة أن الفروق الطبقية من صنع البشر، ومما عملته أيديهم، فغنى أصحاب السلطة هو ثمرة جوع فقراء الشعب، مؤكداً مبدأ آخر من مبادئ مدرسته : هذه القسمة ضيزى .. لا تلوموا الله فيها

فهي من صنع البشر
ما اغتنى صاحب قصر متخم
إلا بما جاع به .. ألف فقير [١]

ثم نراه يناقض نفسه حين يطالب (الله) بتحقيق العدل والقسمة بالقسط وفق قانون الحياة، مع أن الفروق الطبقية من صنع البشر !!

- إننا نعبده كي يصبح العدل وحتى تصبح ..
القسمة بالقسطاس
قانون الحياة
ربما يسمعنا لو أننا قلناه له :
" أعطنا الجنة في الأرض .. وأعط الحاكم
السلطان (رب البنك والثروة والسلطة)
جنات عدن
- قد تأخرت علينا أنت يا رب
تأخرت كثيراً وطويلاً
ولقد آن الأوان .. الآن قد آن الأوان .[٢]

وأخيراً يتحدى توفيق زيّاد السلطة بظلمها واستبدادها وتجبرها، وكل ما تفعل ، غير آبه باضطهادها وقيودها، معبراً بذلك عن المقاومة الحقة في أشعاره :

---

[١] أنا من هذي المدينة ، قصيدة (قسمة ضيزى) ، ص ٨٤ .

[٢] المصدر نفسه، القصيدة نفسها (قسمة ضيزى) ، ص ٨٥،٨٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يا طغمة الحكام زيدي

هل لاضطهادك من مزيد ؟!

ألقي القيود على القيود

سوداء باردة الحديد [١]

الشهيد : يبرز الشهيد في قصائد توفيق زياد ممثلاً جانب الرثاء في أشعاره، والشهيد في شعره على صلة وثيقة به بصورة أو بأخرى بصرف النظر عن الرابطة التي تربطه به قرابة كانت أو غيرها. فقد رثى الشهداء من أبناء شعبه الذين سقطوا على أرض الوطن برصاص المحتلين[٢] كما هي الحال في قصيدتيه : (حادث ليلي) و (مقتل عواد الأمارة). أو على إثر عملية بطولية قاموا بها انتهت بموتهم، كما فعل في قصيدته (سرحان والماسورة). ورثى الشهداء الذين ماتوا في ديار الغربية والشتات[٣] .

وقد شكلت قصائد الشهداء في شعره في بنائها ومضمونها احتجاجاً على البطش الذي تمارسه السلطة - أينما كانت - مع الأحرار والأبرياء العرب[٤]. ومن هنا امتد قومياً لرثاء رفاقه الشيوعيين في الوطن العربي، فقد رثى القائد الشيوعي العراقي يوسف سلمان المعروف باسم (فهد) الذي أعدمته حكومة القصر سنة ١٩٤٨م، ورأى في سقوطه منبهاً للشعب العراقي كي يدق أجراس الثورة [٥].

وراح يعدد مناقبه مبيناً أنه رمز العراق الشامخ :

يا فهد .. يا قلب العراق ودمه

وجبينه المسبوك بالنور الوليد

يا فهد . يا عبقاً يضوع على الربا

وعلى الشوارع والمناجم والنجود [٦]

---

[١] أشد على أيديكم ، قصيدة (من وراء القضبان)، ص ٢٠ .

[٢] الحركة الأدبية ، ص ٣٢٥ .

[٣] المرجع نفسه ، ص ٣٢٥ .

[٤] المرجع نفسه ، ص٣٢٧ .

[٥] أنظر : أشد على أيديكم ، قصيدة (فهد)، ص ٨٤ .
- والحركة الأدبية ، ص ٣٢٧ .

[٦] أشد على أيديكم ، قصيدة (فهد)، ص ٨٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والنموذج الحي بأفكاره الذي سيبقى معلماً للأجيال :

يا أيها الغافي وكأسك حية

سنظل نسكبها ..

ونترع من جديد ..!! ؟[١]

وهكذا فقد كانت قصائد الشهداء في شعر توفيق زيـــاد - فـــي معظمـــها - قصـــائد مناسبات، قيلت في موت شهيد، أو تأبين راحل، أو حادث اغتيال [٢].

---

[١] أشد على أيديكم ، قصيدة (فهد) ، ص ٨٨ .

[٢] الحركة الأدبية ، ص ٣٢٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البعد القومي

توفيق زيّاد من أكثر الشعراء جهراً في الشعر السياسي [١] ومن أكثرهم اهتماماً بقضايا أمته، ومشاركةً في أحداثها الجسام. فقد غنى لصمود (بور سعيد) المصرية في وجه الغزو الثلاثي عام ١٩٥٦ في قصيدته (بور سعيد)، ولمصر في قصيدته (مصر ١٩٥١) ولثورة تموز في العراق في قصيدته (١٤ تموز)، وللسودان في قصيدته (حبيبتي أم درمان)[٢] وللجزائر في قصيدته (عن الرجال والخنادق)، ولانتفاضة لبنان في قصيدته (جزيت النصر)[٣] . كما غنى لأمته العربية كاملة في قصائده : (ادفنوا أمواتكم وانهضوا) و (ست كلمات) و (وثبة الجسر) و (جزيت النصر). واقفاً بذلك مع أمته ضد العسف والطغيان أيناً كان مصدرهما . منتصراً لقضايا العدل والحق والجمال[٤] عاكساً بذلك كله البعد القومي في أشعاره. وهذا البعد على ارتباط وثيق بالبعد الوطني ، فتوفيق زياد غنّى ثورات أمته وشعوبها وحركاتها التحررية وفي مقدمة تفكيره قضيته الوطنية. وقد عبر سميح القاسم عن هذه الرؤية عند شعراء الأرض المحتلة، ممثلاً أصحابها عموماً، خير تعبير : " إنني أنظر الى القضية الفلسطينية من خلال قضية التحرر العربية كلها، ومن خلال الحركة الثورية العالمية ... وهذا واضح في شعري.. إنني أعيش كابوس " فلسطين ثانية " في البحرين مثلاً أو الجنوب العربي. مذبحة " كفر قاسم" نظرت إليها في إطار العدوان الثلاثي على مصر ، وهكذا أنظر الى مختلف جوانب القضية"[٥].

ولعل هذا القول خير دليل على الترابط الوثيق بين البعدين فالبعد الوطني في شعر توفيق زياد إنما يظهر في إطار البعد القومي، وينظر إليه بمنظوره، وتتسع الدائرة أكثر عندما يظهر البعد القومي في إطار البعد الأممي الإنساني، مما يؤكد الترابط الوثيق بين الأبعاد الثلاثة في شعر توفيق زيّاد .

---

[١] الحركة الأدبية ، ص ٣٣٥ .

[٢] المرجع نفسه ، ص ٣٣٧ . وانظر أيضاً .

- راشد حسين الشاعر، ص ٢٦٢، ٢٨٣ .

[٣] الحركة الأدبية ، ص ٤٩٧ .

[٤] المرجع نفسه ، ص ٤٩٧ .

[٥] انظر: راشد حسين الشاعر ، ص ٢٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد حملت قصائد توفيق سالفة الذكر المضمونين التاليين :

الأمة العربية :

أمن توفيق زياد بأمته العربية التي استفاقت من سباتها العميق ، ووقفت تتحدّى ظلامها، وكانت على قدر التحدي :

وأفدي أمة غفلت زماناً
على أغلال عبد مستبد
أفاقت في فراش من لهيب
وفي يدها سلاح الحق يردي
تحداها الطغاة فما توانت
وكانت خير من قبل التحدي [١]

وعزت على خصومها وكانت في المقدمة :

وحولك أمة عزت منالاً
لها من دهرها الصف الأمامي[٢]

وقدمت شهداءها ولم تبكهم ، وإنما استمرت في ثورتها على الطغيان والاستعمار حتى تسحقه، وتصنع من قبور قتلاه جسراً الى الغد الأفضل :

أية يا جسر ! لست أرثيك .. إنا
أمة تبذل الضحايا وتبتسم
وتبيد المستعمرين وتبني
فوق أجداثهم
طريقاً
إلى الغد [٣]

---

[١] كلمات مقاتلة ، قصيدة (جزيت النصر)، ص ٥٨، ٥٩ .
[٢] المصدر نفسه ، القصيدة نفسها ، ص ٦٠.
[٣] أشد على ايديكم ، قصيدة (وثبة الجسر)، ص ١٦٣، ١٦٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإيمانه بأمته إيمان مطلق ، فنراه في هزيمتها بعد حرب سنة ١٩٦٧م مومناً بـــالنصر والحق، وأن هزيمتها مجرد كبوة جواد، وتقهقرها خطوة للخلف سيحفزها على التقـــدم عشـــرا للأمام[١]:

كبوة هذي

وكم يحدث

أن يكبو الهمام

إنها للخلف كانت خطوة

من أجل عشر للأمام [٢]

ولذلك فهو يدعوها لتلملم جراحها، وتدفن قتلاها ، وتنظر إلـــى غدهـــا ومســـتقبلها ، مستفيدة الدروس والعبر مما حدث معها .

فادفنوا أمواتكم وانتصبوا

فغد - لو طار - لن يفلت منا

نحن ما ضعنا .. ولكن

من جديد ..

قد سُبكنا [٣]

وإيمانه بأمته العربية نابع من إيمانه بالشعوب العربية فالأمة ليست إلا شعوبها. فـــهو ينظر بإحدى عينيه إلى شعبه ، وينظر بالأخرى الى الشعوب العربية الشقيقة ، فحالهما واحـدة، فكما هو شعبه صامد ثائر مقاوم أبي مقدام، فكذلك هي الشعوب العربية . فها هو شعب مصـر يصمد في وجه الغزو الثلاثي سنة ١٩٥٦م في مدينة بور سعيد أبياً مقدامـــاً يصـــارع الغـــزاة المسلحين بالمدافع والطائرات ، وسلاحه في ذلك الصراع بداه :

---

[١] شعر الأرض المحتلة ، ص ٣٥٠.

[٢] كلمات مقاتلة ، قصيدة (ست كلمات / يا بلادي)، ص ٤٠ . وأنظرها أيضاً في :
سجناء الحرية، قصيدة (كلمات عن العدوان / خطوة الى الخلف - عشر الى أمام)، ص ٤٠.

[٣] سجناء الحرية ، قصيدة (أدفنوا أمواتكم وانهضوا)، ص ٤٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يا شعب مصر ومصر قبر غزاتها
حييت من شعب أبي مقدم
شعب بأيديه يصارع جحفلاً
بمدافع وبطائرات حوم.[١]

ويعبر في حرب أكتوبر عام ١٩٧٣م تحت لهيب الشمس مفجراً بصيحاته القنال باذلاً الشـــهداء حتى تتحقق له الحرية :

كان العبور مقدساً، والشمس في عز الظهيرة
وصيحة كبرى تفجر في القنال الشوق للحرية
الحمراء [٢].

أما شعب العراق فينتفض في وثبه الجسر سنة ١٩٤٨ م ، ويطيح بالســـلطة - ممثلـــة بحكم صالح جبر آنذاك - بشجاعة وصلابة عزم غير هياب لما يلاقيه ، ليخلـــد دور الشـــعب على مدى الأيام :

- شعب بغداد كالأسود الضواري
- ذلك الشعب لم يهب ما يلاقي
عزمه الصلب لم يزل في انطلاق
وثبة بعد وثبة في سباق
" صالح " ولى و " السعيد " سيمضي
إنما الشعب خالد في العراق[٣] .

ونتواصل بطولاته استمراراً ليوم الوثبة ، ويواصل ثورته على السلطة المســـتبدة فـــي (١٤) تموز :

- وانظر أكف الشعب كيف تخضّبت
بدم الملوك الراقصين على عمود
- ناديت : " يا شعب العراق إلى متى

---

[١] أشد على أيديكم ، قصيدة (بور سعيد / وشعب لا ينحني)، ص ٥٥ .
- وانظر أيضاً قصيدة (مصر ١٩٥١) ، ص ١٥٤ .
[٢] سجناء الحرية، قصيدة (العبور الكبير / العبور)، ص ٩٤ .
[٣] أشد على أيديكم ، قصيدة (وثبة الجسر)، ص ١٥٨، ١٦٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذي الجباه الشم تمعن في السجود .. ؟ ؟

" لا بد من سيف !! " فردد شعبنا:

" لا بد من سيف يسل من الغمود . [١]

و لا يقل شعب لبنان بطولة عن سابقيه في ثورته عام ١٩٥٨، مقسما على تحرير أرضه:

وشعبك ثورة حمراء تسري
لهيبا، في الدماء وفي العظام
بريق عيونه قسم و عهد
لتحرير العرين المستضام[٢]

و هذا شعب الجزائر يجسد بثورته أمل الشعوب العربية كلها، وشعوب العالم الثالث عامة ويعيد إليها الثقة[٣] " ولم يدخل إلى الشعر العربي الحديث نغمة الفرح الواثق إلا ثورة الجزائر الباهرة التي شهدت انتصار الإنسان العربي في الجزائر على قوى معادية أشد منه بطشا، وأغنى منه في قواها العلمية والتكنولوجية . إن هذا الانتصار النبيل العامر بكبرياء النضال وقوة التضحية جدد الثقة والأمل في قدرة العربي على تجاوز أوضاعه والتغلب على قوى الشر الخارجية و الداخلية " [٤] .

فيحييه توفيق زياد تحية المقاتلين الأبطال الذين بذلوا دماءهم حتى أصبحت الجزائر بلد المليون شهيد في سبيل نيل حريتها المخضبة بالدماء :

– تحية السلاح !!
للدم ، للتراب ، للجراح
– حتى أضاء وجهك الأحمر يا حرية
كلفنا مليون ثائر .. ضحية [٥]

---

[١] أشد على أيديكم، قصيدة (فهد) ، ٨٤، ٨٦، وانظر أيضا قصيدة (١٤ تموز)، ص ٥٩-٦٢ ، من الديوان نفسه .

[٢] كلمات مقاتلة ، قصيدة (جزيت النصر)، ص ٥٩، ٦٠ .

[٣] انظر : راشد حسين الشاعر ، ص ٢٦٤ .

[٤] سلمى الخضراء الجيوسي – مجلة " عالم الفكر " المجلد الرابع ، عدد ٢، الكويت تموز – اب -أيلول ، ١٩٧٣، ص ١٣. وانظر أيضا راشد حسين الشاعر ، ص ٢٧٢، ٢٧٣ .

[٥] أشد على أيديكم ، قصيدة (عن الرجال والخنادق)، ص ٦٣، ٦٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما شعب السودان فشعب العزيمة والثورة :

افتحوا كل النوافذ

ودعوا الريح التي تأتي من السودان

تحكي لي، عن العزم الذي

في صلب ثائر[١]

وهكذا يظهر التلازم في شعره ضمن البعد القومي من خلال التداخل الواضح بين الأمة وشعوبها، كما يتضح ترابط البعدين الوطني والقومي معاً، فشعبه واحد من الشعوب العربية التي تواجه التحديات نفسها ، وتستهدف الغايات ذاتها، ولها الآمال والطموحات المشتركة من حيث التخلص من الاستعمار ، وتحقيق الحرية، وصنع المستقبل المشرق .

[١] سجناء الحرية ، قصية (حبيبتي أم درمان)، ص ٥٦، ٥٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الاستعمار :

يكمل الاستعمار - في شعر توفيق زياد - دور السلطة في الإجهاز على الشعب. إنه الوحش الذي يذبح أبناء الوطن المستعمر بلا إنسانية، ويزجهم في السجون، ويسوق خيرات الوطن وقوت شعبه . بمساعدة أجرائه وعملائه من السلطة عبدة الحكم :

وانقض الاستعمار وحشاً ساغباً
في نابه للفتك ، شهوة مجرم
فمن انجليزي يلوك لحومهم
لوك اللبان بشدقة المتورم
وفرنسوي فك من " بستيله "
ليشيد بستيلاً لشعب ملهم
سبعون عاماً والكنانة صهوة
لعصابة، من كل علج متخم
زرق العيون.. يصفّفون شعورهم
بالدمع ، بالبترول، عفوك بالدم
الغاصبون بسيفهم، ودهائهم
خبز الجياع الكادحين القوّم[1]

ويصور توفيق زيّاد في أشعاره جمال الحياة قبل مجيء الاستعمار ، بكل ما فيها من مظاهر :

٥٤٦٩٩

[1] أشد على أيديكم، قصيدة (بور سعيد / محتلون)، ص ٥٢، ٥٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فتح الورد على
مرفق شباكي، وبرعم
والدوالي عرشت ،
وأخضر منها ألف سلم
واتكا بيتي ، على
حزمة شمس .. يتحمم
كان هذا ، قبل أن جاؤوا
على دبابة .. لطخها الدم !![1]

ثم كيف انقلبت الحياة الى الضد بفعل المستعمر المخرب الـــذي قضـــى علـــى مظاهر الحياة والجمال، وقتل الأطفال وولّد الحقد والعداوات والقبور.

من هنا مروا إلى الشرق ،
غماماً أسوداً
يطؤون الزهر والأطفال ، والقمح ،
وحبات الندى
ويبيضون عداوات، وحقداً،
وقبوراً، ومدى[2]

وتمتد نظرة توفيق زياد الأممية للاستعمار على أنه لا يتجزأ في أي مكان فـــي العالم فهو واحد مهما اختلفت صورته ، وتعددت أشكاله . وهذا ما أكده حين توجه الـــى شعب كوبا معلم الكفاح للشعوب - كما يراه - طالباً منه تشديد قبضته علـــى المســـتعمر الذي أنهكَ قواه هو - أي توفيق زيّاد - وأثخن شعبه الفلسطيني بالجراح . وهـــو بذلـــك يجعل استعمار شعب كوبا كاستعمار شعبه الفلسطيني :

---

[1] سجناء الحرية ، قصيدة (قبل أن يجيئوا)، ص٥١ .

[2] المصدر نفسه، قصيدة (كلمات عن العدوان / الغمام الأسود)، ص ٣٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يا أصدقائي الناشرين على الورى
أرج الكفاح
شدوا على المستعمرين فإنهم
قصوا جناحي
عندي لهم ثارات شعب
أثخنوه بالجراح [١]

وفي تحديه الاستعمار يبين ان المستعمر يمكن ان يسلب الانسان المستعمر كل ما يملك ولكنه لن يستطيع أن يسلبه حبه وطنه، ومبادئه وأفكاره، وضميره الحي، ولسانه الناطق بالحق :

سلبوني كل شيء ،
عتبة البيت، وزهر الشرفة
سلبوني كل شيء
غير قلب ،
وضمير ؛
وشفه !![٢]

ويؤكد أن يد المستعمِر مهما أحكمت قبضتها على المستعمَر وتجبرت به ، تبقى ضعيفة مرتجفة خائفة يسهل فكها وإزالتها وزوال المستعمر بزوالها :

---

[١] أشد على أيديكم، قصيدة (كوبا)، ص ١٣٩.
[٢] المصدر السابق ، قصيدة (مليون شمس في دمي)، ص ٤٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يدنا ثابتة .. ثابته

ويد الظالم، مهما ثبتت ،

مرتجفه !![١]

وبالتالي فنهاية الاستعمار محتومة هي النصر للوطن المستعمر وشعبه المكافح :

فأنا هنا تطوي الجليل قصائدي

ثقة وإيماناً بنصر محتم [٢]

---

[١] سجناء الحرية، قصيدة (مليون شمس في دمي)، ص ٤٤ .

[٢] المصدر نفسه ، القصيدة نفسها ، ص ٥٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البعد الأممي الإنساني

تبرز النزعة الإنسانية الأممية بوضوح في شعر توفيق زيّاد، بسبب إنتمائه المبكر للحزب الشيوعي. فقد رأى الحرية لا تتجزأ، فغنى لأحرار العالم، ودان قتل المناضلين، ودعا إلى الانتقام من الساسة المجرمين. وكره الحرب لما تسببه من مآس وأحزان، وحلم بالسلام ودعا إليه ، " ورأى في الماركسية والشيوعية العالمية حلاً لمشكلة وطنه ، ومفتاحاً لإحلال السلام العالمي؛ فراح يبشر بها كأنها موسم من مواسم الحياة قادم لا محالة ، وحتمية تاريخية لا مفر منها، وكانت قصائده تشيد بها وبمعتنقيها[١] . لأنها ستلغي العنصرية والتعصب بأشكاله المختلفة " [٢] .

وقد تمثلت نظرته الأممية الإنسانية في شعره بالمضامين التالية :

الحرية :

تغنى توفيق زيّاد بالحرية في أشعاره، فغنّى للإنسان ، لكل إنسان يتحرر من المغتصبين والمتحلين الغزاة على اختلاف ألوانهم وتعدد أصنافهم :

سأغني

للإنسان المتحرر

من كل المغتصبين

من كل المحتلين الغازين [٣]

وآمن ببزوغ فجر الحرية بالاتحاد والتضامن وتحدي المعوقات والصعوبات، مهما طال الزمن إيماناً مطلقاً.

---

[١] أنظر في هذا المجال قصائد : ثلاث أغان لناظم، وايخمان، ولومومبا، وشيوعيون، وإلى عمال موسكو، والمناشير المحترقة، وكرسنايا برسنايا، وغغارين، في ديوانه (أشد على أيديكم).

[٢] الحركة الأدبية ، ص ٣٣٨. وانظر أيضاً في هذا المجال :

- راشد حسين الشاعر ، ص ٢٨٢ .

[٣] سجناء الحرية ، قصيدة (سجناء الحرية / القريب الآتي)، ص ٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فتعالوا

نشبك الأيدي بالأيدي

ونمشي في اللهيب

فغد الأحرار إن طال

وإن طال –

قريب [١]

ورآها الفجر الأغر الذي يستحق بزوغه تقديم التضحيات :

بالاضاحي نفرش الدرب

الى الفجر الأغر [٢]

وبين أنها لا تمنح أو توهب، فثمنها الغالي هو كفاح المستعمر بظلمه واستبداده وغطرسته، ووقوف الأبطال في وجهه مضحين بأنفسهم في سبيل نيلها، متماسكين متعاضدين، يهدمون كل المعوقات :

– هذي أغنية

للعشرة آلاف شظيه

من مئة مليون شظيه

تنفجر في ليل الظلم الداجي

حتى تشرق في الأرض العربيه

شمسك يا حرية

– هذي أغنية

للعشرة آلاف بطل

من مئة مليون بطل

للإنسان الهاتف

---

[١] أنا من هذي المدينة ، قصيدة (أمة فوق الصليب)، ص ٩ .

[٢] كلمات مقاتلة ، قصيدة (ضيقوا الحبلة)، ص ٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في وجه الغازي المحتل

الموت

أو..

الحريه [١]

– لن ننساكم. معكم نحن . سوية ..

سنمزق ليل العار

سنهدم كل الأسوار

حتى تشرق شمس الحريه [٢]

وهكذا ينظر توفيق زيّاد الى بزوغ الحرية في الأرض العربية، من منظوره الإنساني المتمثل في غنائه حرية الإنسان المتحرر من مغتصبيه وغزاته ومحتليه .

السلام والحرب :

انتمى توفيق زيّاد للسلام ، ودعا الى صونه وحمايته والإبقاء عليه :

معكم.. مع الشعب الذي
صان السلام أمام طيش
المعتدين[٣]

وتأتي دعوته الى السلام في إطار رؤيته الخاصة للصراع الفلسطيني الإسرائيلي، هذه الرؤية التي عبر عنها بقوله : " إننا لم نعتبر الشعب الآخر الذي نعيش وإياه في هذه البلاد عدواً لنا. وإنما اعتبرنا العدو حكامه الذين دخلوا في حلف مع

---

(١) سجناء الحرية ، قصيدة (سجناء الحرية / الحرية أو الموت)، ص ٩، ١٠ .

(٢) المصدر نفسه ، القصيدة نفسها ، مقطوعة (وطن يدفع الثمن)، ص ١١.

(٣) أشد على أيديكم ، قصيدة (إلى عمال موسكو)، ص ٢٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الاستعمار ، ضد حركة التحرر الوطني العربية، وغيرها ، وضد أماني شعبنا العادلة"[١] فهو لم يكره الشعب اليهودي، إنما كره حكامه الظلمة الذين يخلقون العداء بين الشعوب، عندما يغتصبون الأرض وشعبها :

أنا لم أكره يهوديا
فكره الشعب لم يدخل عروقي
ويدي ممدودة للشعب ، للعمال،
هم صحبي وإخوان طريقي ،
إنما أكره كره الحر
حكما جائرا نشف ريقي ،
أنا لم أكره يهوديا،
فكره الشعب لم يدخل دمي
إن يكن حكامه اغتصبوا شعبي وأرضي
فأنا
دائما أوقفت للشعبين ،
حتى النصر
قلبي وفمي[٢]

ويتضح من المقطع الشعري السابق أن توفيق زياد أراد ان يقطع على الحكام الصهاينة والمتطرفين من شعبهم -وهم الأغلبية الساحقة- أهدافهم الرامية الى عزل شعبه عن شعوب العالم، وما ينبني على هذه العزلة من خطر التقوقع والإنكفاء على الذات، فراح يدعو إلى التعايش ما بين الشعبين الفلسطيني واليهودي. ويقول في هذا الصدد : " أرادوا عزله لا عن الشعوب العربية فحسب ، بل عن شعوب العالم، وبشكل أخص عن القوى الديمقراطية للشعب اليهودي الذي نعيش وإياه جنبا إلى جنب ، بل وعزله عن كل الفكر التقدمي الإنساني المتطور، العربي والعالمي، وتغذيه الأفكار الشوفينية الضيقة التي لا تخرج عن نطاق العصبية الجاهلية المقيتة حتى يتميز

---

(١) عن الأدب والأدب الشعبي ، مقالة بعنوان (ملاحظات أساسية حول الشعر العربي الثوري في إسرائيل)، ص ٨٣. وانظر أيضا :
- راشد حسين الشاعر ، ص ٢٣٣.

(٢) سجناء الحرية ، قصيدة (عن العليق والسنديان)، ص ٧٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالانطواء على النفس وضيق الأفق والسطحية ، وحتى يصبح من الممكن تكتيفه بشاربيه " [١].

ولذلك راح يدعو إلى تنظيم علاقة الشعب الفلسطيني مع القوى التي يعدها قوى ديمقراطية في الشعب اليهودي ويقول : إنها هي الأخرى نظمت " علاقاتها معنا على أساس أنه لا يمكن لشعب يستعبد شعباً آخر أن يكون هو نفسه حراً "[٢] وهذا تماماً ما عبر عنه شعراً حين قال :

إن من يسلب حقاً

بالقتال -

كيف يحمي حقه يوماً

إذا الميزان ،

مال .. ؟ [٣]

وقد غنى كثيرون من شعراء الأرض المحتلة - كما يقول - كفاح هذه القوى الديمقراطية التي وقفت الى جنبهم في كل معاركهم المصيرية واليومية[٤]. وغنى هو نفسه هذه القوى في قصيدته (المناشير المحترقة) التي قالها في الطلاب اليهود الذين وزعوا المناشير ضد مقتل خمسة من الشباب العرب على يد سلطات الاحتلال ، على الحدود سنة ١٩٦١ م ، في قلب تل أبيب - ساحة ديزنكوف - فاعتدى عليهم الشرطة ومزقوا ثيابهم، واحرقوا المناشير، وكتبهم التي كانوا يحملونها[٥] .

فحياهم تحية السلام ، وعدهم أصدقاء شعبه في الكفاح ! :

---

[١] عن الأدب والأدب الشعبي ، ص ٨٨، ٨٩ .

[٢] عن الأدب والأدب الشعبي ، ص ٩١ .

[٣] كلمات مقاتلة، قصيدة (كيف) ،ص ١٠.

[٤] راشد حسين الشاعر، ص ٢٣٧.

[٥] أنظر : أشد على أيديكم ، ص ٢٨.

- و راشد حسين الشاعر ، ص ٢٣٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الورد أحمل .. والسلام الحق

والحب العميق

هذي يدي ،

يا أصدقاء كفاحنا في كل ضيق

في كل عرق نابض

عهد الصديق الى الصديق[١]

ولكن كم نسبة هؤلاء الديمقراطيين إلى الشعب اليهودي كاملاً؟ انها نسبة ضئيلة لا تكاد تذكر . وهل من الممكن أن يأتي يوم يصبح فيه اليهود أصدقاء الشعب الفلسطيني في الكفاح ؟! لا أعتقد ذلك.

وعلى أية حال يمكن القول: إن دعوة توفيق زيّاد الى التعايش بين الشعبين تأتي في وقت أصبح فيه الوجود اليهودي على أرض فلسطين واقعاً قائماً يجب التعامل معه بحكمه وبعد نظر، في الوقت الذي أصبح فيه التفكير المثالي، أو القائم على الصراع تفكيراً قاصراً. وهذا التعايش الذي يدعو إليه لا يقوم على الخضوع والمذلة -كما يرى- وبالتالي فهو التعايش نفسه الذي قال فيه محمود درويش :

" لا أخوّة الفارس والفرس، بل الأخوة بين المتساوين " [٢].

فتوفيق زيّاد في دعوته للسلام إنما يدعو إلى السلام العادل القائم على أساس المساواة ما بين الشعوب، فنراه يرفض منطق إسرائيل التي ترى شعبها أكثر الشعوب موهبة ، وترى نفسها الأكثر حنكة سياسية وقوة، ويرفض سياستها التي تود فرض السلام بالقوة!، ويسخر من هذه السياسة المتناقضة العقيمة :

---

[١] أشد على أيديكم، قصيدة (المناشير المحترقة)، ص ٢٨.

[٢] محمود درويش - شيء عن الوطن ، ط ١، دار العودة - بيروت ، ١٩٧١م، ص ٦٤ ، من مقالة بعنوان (من المنولوج الى الديالوج). وانظر أيضاً في هذا المجال :

- السيرة الذاتية ، ص ١٥ .
- في ذكرى الأربعين ، ص٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- أولسنا شعباً موهوباً ؟
- من دون كلام !
- فلماذا نخفق باستمرار في بيع الجيران سياستنا ؟
- لا أدري .
- ولماذا لم ننجح بشراء دقيقة سلم واحدة منهم.. واحدة لا أكثر ؟
- لا أدري[١] .
- ما دام الأمر كذلك ما الحل إذن ؟ ماذا نفعل حتى يتحقق للشعب السلم ؟
- لا أدري
- أنا أدري
- هات إذن ..
- لا حل سوى القوه
أن نفرضه بالقوه !![٢]

وحتى هذه اللحظة لم تكن دعوة توفيق زيّاد الى السلام مع اليهود ضمن الإطار السياسي الدولي الذي يؤدي الى الاعتراف بدولة إسرائيل ، وإضفاء الصفة الشرعية عليها، حتى من قبل الشعب الفلسطيني والقيادة الفلسطينية . إنما كانت (دعوة اجتماعية)، دعوة الى سلام الحياة، حياة الأمن والطمأنينة - التي حرم منها عرب الأرض المحتلة - والاعتراف بحقوقهم الكاملة ، حياة الحرية والمساواة على أرض وطنهم دون الاعتراف بدولة إسرائيل ودون إعلان عدم الاعتراف هذا صراحة ومواجهة. إنها دعوة هدفها التخلص من الحكم العسكري وجور السلطة واضطهادها وتعذيبها اليومي الذي يصل درجة القتل المتعمد [٣].

---

[١] سجناء الحرية ، قصيدة (شيء عن القوة (حوارية))، ص ٨٧.

[٢] المصدر نفسه، القصيدة نفسها ، ص ٨٨

[٣] انظر في هذا المجال تفسير الدكتور حسني محمود دعوة الشاعر راشد حسين الى السلام مع اليهود ، ص ٢٤٥-٢٤٨، من كتابه : راشد حسين الشاعر من الرومانسية الى الواقعية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكن هذه الدعوة راحت تأخذ إطارها السياسي وتحمل الصبغة الدولية، وقد بدا هذا بوضوح في قصيدته (قصائد ايبي نتان)[١] التي تحمل الترتيب الحادي عشر ضمن قصائد الديوان الأربع عشرة ، لكنها الأخيرة زمنياً من حيث النظم، فقد أتم نظمها في أواخر أيار وأوائل حزيران من عام ١٩٩١م .[٢] وتزول الغرابة إذا ما عرفنا أنه في هذه المرحلة بدأت تلوح في الأفق بوادر (مؤتمر السلام العالمي) الذي عُقد في مدريد في أواخر العام نفسه .

والمقاطع الشعرية التالية من هذه القصيدة، تؤيد هذه الرؤية ، كما سنرى يقول :

- ألم يحن الوقت
أن نتجاوز دائرة الدم والنار ..
أن يجنح العقل والقلب
نحو السلام
ونحو الحقيقة .. ؟؟
ألم يحن الوقت
أن يفهم الوزراء
وأن يفهم العقلاء
وأن يفهم الأوصياء
وكل الذين يهمهم الأمر
أن حدود السلام
تقوم على العدل
ان حدود السلام
ستبقى الى أبد الأبدين ..
حدود السيادة ..
تبقى إلى أبد الآبدين .
حدود المساواة بين الخليقة ..؟ ؟

---

[١] ايبي نتان ، داعية من دعاة السلام اليهود .

[٢] أنظر تأريخ القصيدة بالتاريخ المذكور، في نهايتها في ص ٦٠ من الديوان .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ألم يحن الحين

أن نلتقي للحوار ككل البشر ؟؟

- ألم يحن الوقت

أن نلتقي للحوار

محل العراك ؟؟ (١)

وهكذا فقد أصبح توفيق زيّاد يتحدث بمنطق العصر، والمرحلة الراهنة، ويستخدم مصطلحاتهما من الجنوح نحو السلام ، وقيام السلام على العدل والمساواة، وأن حدود السلام هي نفسها حدود السيادة، والجلوس الى طاولة الحوار والتفاوض !! وفي قوله (نلتقي للحوار ككل البشر) إنما يعني طرفين محددين بينهما صراع ونزاع ، واضح أنهما : الفلسطينيون والإسرائيليون . وليس هذا فحسب ، فقد اضفى على السلام الصبغة السياسية حين توجه بطلبه إلى الوزراء والأوصياء وكل من يهمهم الأمر ، ومن هم هؤلاء سوى (السلطة)؟ !

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فقد توجه الى الحكام والساسة أنفسهم، مستنكراً عليهم الاستمرار في الحرب، داعياً إياهم الى الاتجاه للسلام :

لدي سؤال الى هيئة الحرب :

قولوا :

ألم تكتفوا بالذي تد عبر ؟؟

لدي سؤال إلى قادة الحكم :

قولوا :

أتبقون تحيون بين الحفر ؟؟(٢)

وراح يدعو الناس - الذين هم الشعب - الى الاتحاد معاً لإجبار السلطات - ممثلةً برؤساء الوزراء والوزراء - على الاتجاه الى السلام :

---

(١) أنا من هذي المدينة، قصيدة (قصائد ايبي نتان)، ص ٤٩، ٥٠،٥٢، ٥٣ .

(٢) المصدر نفسه ، القصيدة نفسها ، ص ٥٠ ، ٥١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أيها الناس اقرعوا الأبواب
باباً بعد باب
إقرعوا رأس رئيس الوزراء
أقرعوا كل رؤوس الوزراء
كل صبح ومساء
اقرعوها قبضةً واحده .[١]

والحقيقة أن توفيق زيّاد في اعتقاده بإمكانية التعايش السلمي ما بين الشعبين اليهودي والفلسطيني ودعوته إلى السلام بينهما سواء على صعيد الدعوة الاجتماعية أو الدعوة السياسية قد وقع في فخ الوهم وابتعد عن المنطق كل البعد، فلا فرق بين السلطة اليهودية وشعبها، بدليل أن السلطة اليهودية التي يحتل رئيس وزرائها مرتبة الحاكم الفعلي ليست إلا النتيجة الطبيعية لاختيار الشعب اليهودي، فكيف نمد يدنا لشعب اختار سلالة متتالية من القتلة من أمثال : مناحيم بيغن ، واسحق شامير، واسحق رابين، وبنيامين نتنياهو، و إيهود باراك وأرئيل شارون الذين تفننوا في قتل الشعب الفلسطيني وافنائه وتشريده ونعدّهم صحبنا وإخوان طريقنا كيف؟! ولعل الأحداث الجارية حالياً في فلسطين المحتلة على يد السفاح شارون على مدى ثمانية أشهر خير دليل على ذلك. أوليس الشعب اليهودي من اختار شارون تقديراً له على قتله الفلسطينيين في الداخل وعلى مجازره في صبرا وشاتيلا؟! فكيف نعترف بحق هذا الشعب في الحياة، وهو الذي ينكر علينا الحق ذاته؟! وإذا اعتقدنا وهماً بأفضلية حزب العمل على اليمين المتطرف سنجد أنهما وجهان لعملة واحدة، فها هو شمعون بيريس الذي كان يدّعي وقوفه في معسكر السلام، انتمى لحكومة شارون، وراح يبرر له أفعاله، ويجوب العالم لحشد التأييد لموقفه المتطرف.

وأياً كان الأمر ، فما سبق يدل - بطريقة أو بأخرى - على حب توفيق زيّاد السلام وكرهه الحرب . فكرهه الحرب هو النتيجة الطبيعية لحبه السلام ، وهو المنطق الواعي آثار الحرب المؤلمة من موت ودمار وقتل وحرق وقضاء على مظاهر الحياة والجمال، وخلق للثارات والعداوات :

---

[١] أنا من هذي المدينة، قصيدة (قصائد إيبي نتان) ، ص ٦٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- أنبقى نموت ونشبع موتاً وقتلاً .

- حتىم[*] يبقى يشيد

مصنع موت جديد

مكان الحديقه ؟؟ [١]

-أنبقى إلى أبد الآبدين

ندمر بعضاً

ونقتل بعضاً

ونحرق بعضاً

ونأكل .. نشرب بعضاً

ونزرع في كل بيت

قبوراً ..

وشجرة ثأر ؟؟ [٢]

وإفناء للأمم، واستعباد من المنتصر للمهزوم :

كفروا بالحرب تفني الأمما

كفروا بالظالم المستعبد [٣]

وأخيراً، فإن توفيق زيّاد رغم كرهه الحرب ، إلا أنه يحبها الى درجة العشـــق، ويبذل روحه وحياته في سبيلها عندما تكون للتحرير ، وإستعادة المغتصب المسلوب:

---

[*] هكذا وردت في الديوان ، والصواب : حتام .

[١] المصدر نفسه، القصيدة نفسها ، ص ٥١.

[٢] المصدر نفسه، القصيدة نفسها ، ص ٥٣.

[٣] عمان في أيلول ، قصيدة (موشح)، ص ٨٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أكره كل حروب الدنيا

إلا حرباً واحده ، أعطيها :

روح الروح ، وقلب القلب .

وأعطيها :

صوتي ودمي وكياني

حرباً واحدة

هي

حرب

التحرير [1]

ولا تناقض هذه النظرة كرهه الحرب، لأن الحرب عندها تكون حرباً عادلة.

وهكذا فالسلام والحرب متلازمة - في شعر توفيق زيّاد - تؤكد تداخل مضامين البعد الإنساني الأممي في أشعاره .

الثورة والكفاح :

نظر شعراء الأرض المحتلة عموماً - وتوفيق زيّاد منهم - الى معارك الشعوب وثوراتها وكفاحها ، نظرة تنبع من إيمانهم بالأخوة بين الشعوب و التضامن الأممي، هذا الإيمان القائم على أن معارك الإنسانية عامة واحدة في مضمونها، وشكلها وأهدافها . وقد دعم هذه النظرة لدى الكثيرين منهم انتماؤهم الى الحزب الشيوعي، إضافة الى الروح الإنسانية لدى كل منهم [1].

أما توفيق زيّاد تحديداً فقد أضاف الى ما سبق جعله الشعر الثوري في زمنه امتداداً لشعر الرواد الذين سبقوه في مرحلة الثلاثينات: " ونحن الشعراء الذين كنا أقل من أصابع اليد الواحدة في حينه، وكان الشعر لم يتسلق بعد أسفل ذقوننا الى عوارضنا

---

[1] سجناء الحرية ، قصيدة (العبور الكبير / شيء في الحرب)، ص ٩٨.

[1] انظر راشد حسين الشاعر، ص ٢٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

.. واصلنا الطريق ، نفس الطريق الذي لم يبدأه بل واصله في حينه ابراهيم طوقان وأبو سلمى وعبد الرحيم محمود ومطلق عبد الخالق وآخرون.. لقد زودونا ، قبل النكبة، الزاد الذي استطعنا به أن نسد بطوننا، بعدها. إن شعرنا الثوري هو امتداد لشعرهم، لأن المعركة هي امتداد لمعركتهم :

نفس الخندق - المحبة للأرض والشعب

نفس العدو - الاستعمار والضاربين (*) بسيفه

نفس الهدف - التحرر الوطني والاجتماعي

نفس السلاح - الكلمة الجرئية التي ترقص في وجه الضوء. ولكن مع اختلاف الظرف التاريخي " . (١)

ولذلك أخذ شعراء الأرض المحتلة على عاتقهم مهمة تثقيف شعبهم وشبيبته خاصة بهذه الروح الإنسانية ، وهذه النظرة الأممية التي تؤكد أن الحركة الثورية المحلية تنمو في إطار حركة الثورة والتحرير العالمية، ضمن علاقة جدلية قوية .

ولذلك فقد تجسد هذا البعد الإنساني في قصائد كثير من شعراء المقاومة التي قيلت في نضال الشعوب وثوراتها ومناضليها. هذه القصائد التي عبرت عن وعي هؤلاء الشعراء ورؤاهم للترابط الوثيق بين كفاح الشعوب ضد الاستعمار والظلم والطغيان والتمييز العنصري(٢) لأن " جوهر الثقافة الإنسانية وميراثها الباقي هو رفض الظلم، وتجميل حياة الإنسان " (٣).

(*) هكذا وردت في النص، والصواب : الضاربون

(١) انظر : عن الأدب والأدب الشعبي، ص ٧٧، ٧٨، مقالة بعنوان " ملاحظات أساسية ودراسات حول الشعر العربي الثوري الفلسطيني " .

(٢) انظر: راشد حسين الشاعر، ص ٢٨٥.

(٣) انظر : محمود درويش - مجلة الجديد، العدد : ١٢ (حيفا - كانون ثان) ١٩٦٦، حديث الشهر، ص ٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونقرأ لتوفيق زيّاد قصائد عديدة في هذا المجال. ففي كفاح الشعوب وثوراتـــها، نراه يشيد بشعب " كوبا " المكافح لأجل الحرية :

ويقول مذيع

نسمعكم أغنية من كوبا

ويصيح " أبو عبد الرحمن " :

ما أرجل هذا الشعب الجبار

حلو طعم الحرية يا أحرار !! [١]

ويتوجه إليه طالباً منه تشديد القبضة وتضييق الخناق على المســتعمر الــذي لا يفهم غير لغة السلاح :

شدوا !

جناح النسر أقوى

من أعاصير الرياح

لا يفهم المستعمرون

لُغى التذلل والنواح

لا يفهمون سوى انطلاق الشعب

في ساح الكفاح[٢]

ويكبر شعب تركيا الثائر بركاناً يتحفز :

---

[١] كلمات مقاتلة ، قصيدة (رمضان كريم)، ص ٨٣، ٨٤.

[٢] المصدر نفسه ، قصيدة (كوبا)، ص ١٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إني أتطلع في عينيك
فأرى في تركيا الأحزان
تركيا " الديمقراطية " والعدل المذبوح
شعباً يتحفز كالبركان .[١]

وبتأثير العقيدة الماركسية نراه يحدثنا عن نضال شعب (إيران)[٢] حين أمـــم نفطـــه[٣] مكبراً هذا الشعب الذي انطلق ثائراً وشفاهه تلهج بأنشودة التحرير، هاتفاً للنصر:

طلع الصباح على ربا عبدان
فإذا بها .. مخضوبة الأركان
وإذا حقول الزيت تدفق ثورة
وإذا جموع الشعب في غليان
وإذا الألوف على الشوارع تلتقي
ومواكب الأحرار كالطوفان
أنشودة التحرير ملء حلوقهم
وهتافهم للنصر كالبركان[٤]

وفيما يتعلق بالمناضلين الثائرين يتوجه توفيق زيّاد الى الثائر (لومبا[*]) مخاطباً إياه بالبطل الذي اغتاله المجرمون ، مُعلناً أنه هو نفسه مع الثوار - أينما كانوا - موقفـاً واضحاً صريحاً يعد فيه الوقوف على الحياد سذاجة :

---

[١] أشد على أيديكم ، قصيدة (ثلاث أغان لناظم / نسر الفرحة)، ص ٩١ .

[٢] راشد حسين الشاعر، ص ١٩٩.

[٣] أشد على أيديكم ، قصيدة (عبدان)، ص ١٤٩.

[٤] المصدر نفسه ، ص ١٤٩.

[*] لومبا هو باتريس أمرجي، زعيم وثائر من الكونغو ، ولد بمقاطعة كاساي بالكونغو ، عمل موظفاً بـــالبريد، اشترك في الأعمال السياسية ، وأسس حزب الحركة الوطني الكونغولي . تولى رئاسة حكومة الكونغو فـــي أعقاب الاستقلال سنة ١٩٦٠ . عزله رئيس الجمهورية ، ثم اعتقل في ١٩٦٠/١٢/٢ . اغتيل بالقرب مـــن اليزا بتقيل في كاتانجا في ١٩٦١/١/١٧ .

- انظر الموسوعة العربية الميسرة ، المجلد الثاني، دار نهضة لبنان للطبع والنشر ، بـــيروت - لبنـــان ، ١٩٨٦م - ١٤٠٦هـــ، ص ١٥٨٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- يا أيها البطل الذي

غالته أيدي المجرمينا

- ماذا أقول وفي " الحياد "

تأمل المتصوفينا ؟

وسذاجة أحرى بها

الرهبان والمتبتلونا ؟ [١]

مشيدا بدور هذا الثائر الكبير في إنارة دروب الثورة للشعوب الافريقية، لتثـــور على المستعمر المعتدي :

وبكبريائك ... كبرياء

الثائر المتوقد

ستسير افريقيا الشعوب،

على جبين السيد

وتدك بالنار المريدة

ما أشاد المعتدي [٢]

ويضاف الى قصائده السابقة، قصائده الأخرى التي عبر من خلالها عن انتمائـــه الحزبي المباشر، فمثلاً نراه ينادي جميع الثوار الشيوعيين في قصيدتـــــه (أشـــد مـــن المحال) جاعلاً إياهم إخوانه، بتركيب (يا رفيقي) الذي يدل دلالة مباشرة على الانتماء الحزبي :

---

[١] أشد على أيديكم، قصيدة (لومبا)، ص ١٤٣، ١٤٥ . وانظر أيضاً في هذا المجال : قصيدتـــه (مـــانيلاس غليزوس)، ص ٩٢ من الديوان نفسه .

[٢] المصدر نفسه ، قصيدة (لومبا)، ص ١٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يا إخوتي في الجوع والإرهاب

والخطب المحيق

يا إخوتي في السجن والأغلال

واللحن الطليق

يا إخوتي في الثورة الحمراء

تزحف في العروق

أوليس أشهى من نعيم الذل

قولة " يا رفيقي " ؟ [١]

وتأتي في الإطار نفسه قصيدته (مايا كوفسكي):

هذا الرأس المنحوت

زجاجة خمره

سكرت منها روسيا الثوره . [٢]

ويجاوز توفيق زيّاد النظرة الأممية القائلة بنمو حركة التحرر الوطني في منـاخ حركة التحرر العالمي، حين يجعل حركة التحرر القومي تنمو في الإطار نفسه ، وهـذا ما عبر عنه في قصيدته (إلى عمال موسكو):

---

[١] كلمات مقاتلة ، ص ٤٣.

[٢] المصدر نفسه ، ص ٣٢ .

وانظر أيضاً في هذا المجال قصائد :

- أدنياور ، كلمات مقاتلة، ص ١٢ .
- غغارين ، أشد على أيديكم ، ص١٠٤.
- نشرة أخبار، أشد على أيديكم ، ص ١٦٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لولاك يا موسكو الحبيبه
ما بللت منقارها في النيل
قبرة طروبه
ولجف في بردى السبيل ، وصوحت
في الشط آلهة الخصوبه
ولدق عنق الشعب في بغداد
شرذمة غريبه
شكراً لعينيك اللتين تشمسان النصر
في أرض العروبه [١]

ويحدد توفيق زيّاد في أشعاره أهدافاً للثورة تتمثل في تحقيق الحرية، والقضـــاء على الاستعمار والظلام الفكري والفقر والضعف والظلم ، وتحقيق العدل والمساواة :

- وستبقى ثورة العشاق
ما تبقى الحياة
ثورة النور على العتمة والفقر
على الظلم
وبحر الظلمات
- كل الذي نطلب : أن لا يظلم الناس
فلا يبقى فقير أو ضعيف[٢] .

وهو بذلك ينحاز لقوى الخير والجمال ضد قوى الشر .

---

(١) أشد على أيديكم ، ص ٢٣ .
وانظر ما قيل في مساعدات الاتحاد السوفيتي " سابقاً " لدول العالم الفقيرة في :
- السيرة الذاتية ، ص ١١ ، و
- في ذكرى الأربعين ، ص ٢١ .

(٢) أنا من هذي المدينة ، قصيدة (الندابة /١١- عن الذي لا بد آت ، ١٣- كلمة إلى "عروة الـــوردة ")، ص ١٢٠، ١٢١، ١٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويؤكد أن الثورة يصنعها الفقراء الكادحون :

وطريق الفقراء الثائرين

وقلوب الشرفاء البرره

هي منجانا الأخير[١]

وتبرز أهمية (الوعي) في اشعاره حين يركز على ضرورة التخطيـــط للثـــورة بروية وتأن، كي تبقى دائماً واعيةً يقظى على أهبة الاستعداد؛ لئلا تسيطر عليها السلطة وتقضي عليها ، ولتؤتي ثمارها ساعة الحاجة اليها ضاربة بقوة وثبات . فالثورة فعـــل وكفاح لا أقوال واحلام :

هل يعرف بعض الزعماء

- أن على الثورة أن تبقى يقظى

وعلى استعداد

حتى لا يأخذها الاسياد

وأيتام الأسياد

نائمة .. تحلم بالأمجاد ؟؟

- أن على الثورة ان تبقى يقظى

حتى لا يلتف على عنق الثورة

حبل الجمل الثوريه ؟؟

حتى تضرب لما تأتي ساعتها

بيد ثابتة وقويه؟؟[٢]

---

[١] أنا من هذي المدينة، قصيدة (أنزلي يا مطرة)، ص ٦، ٧ .

[٢] عمان في أيلول، قصيدة (عمان في أيلول / أسئلة لا بد منها)، ص ٥٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا يتضح لنا ان توفيق زيّاد في حديثه عن الثورة إنما يؤكد ترابط الأبعـــاد الثلاثة في شعره معاً، فثورة شعبه ضد الاحتلال هي ثورة شعب مصر ضد العـــدوان الثلاثي وهي نفسها ثورة شعب كوبا ضد الاستعمار .

العمال :

تنبع نظرة توفيق زيّاد للعمال من فكره الاشتراكي القائم على أساس الصـــراع الطبقي، وإيلاء العناية والاهتمام في هذا الصراع للطبقة العاملة؛ ولذلك لم يقتصر حب توفيق زيّاد للعمال واهتمامه بقضاياهم، وبيان دورهم المهم في الإنتاج وخلق الثـورات وقيادتها وتقديم الشهداء - لم يقتصر على عمال شعبه فحسب، بل امتد ليصـــل عمـال العالم في أية بقعة من أصقاع الأرض . فقد رأى عمال شعبه من خلال فلسفته الفكريـة بمنظورها الأممي الإنساني، فراح يؤكد انتماءه للطبقة العاملة، ويجعـــل نفســه أحـد أفرادها:

أنا عامل .. في طبقتي

سر أعز من المحال .. [١]

ويبين أنه خير من يعرف العمال، فقد خبرهم جيداً لأنهم أبناء طبقته :

أنا أعرف العمال أعرف طبقتي [٢]

وفي نظرته الأممية نجده مع عمال موسكو إخوته ! في قضاياهم، منتمياً إليـهم الى الأبد ، مرتبطاً بهم بهذا الرابط الطبقي المتين، يمد يـده لنصرتـهم رغـم أنـوف الحاقدين والكارهين:

- معكم أنا

يا إخوتي العمال في موسكو !! أنا معكم ..

لدهر الداهرين

- بيني وبينكم أواصر طبقة ،

---

[١] أشد على أيديكم، قصيدة (المناشير المحترقة)، ص ٣١ .

[٢] المصدر نفسه ، قصيدة (الى عمال موسكو)، ص ٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أبقى من الفولاذ والصخر المكين
- هذي يد العمال للعمال
ملحاً في عيون الكارهين [١]

ويمجد منجزاتهم التي جاوزت حدود الأرض لتصل الفضاء الخارجي، بصعود رائد الفضاء الروسي غغارين العامل الذي حقق المعجزة بإيمانه بمبادئ الشيوعية - ممثلة في أقوال لينين - وتطبيق هذا الفكر واقعاً عملياً :

- إنه مثلك
مثلي
عامل يؤمن بالحق
بما قال
لينين
- تبني أذرع العمال
صرح المعجزات
- أعرف أن الناس
في " ارض العجائب "
أنجبوا .. " كولمبوس " الجو
وملاح
الكواكب [٢]

ويحيي أصدقاءه عمال كوبا في المصانع والمزارع :

يا أصدقائي .. في مصافي النفط
في كوبا الأبيه
يا أصدقائي ..
في حقول السكر الخضر الغنيه
عندي لكم من بلدتي
من بيتي ، العالي .. تحيه [٣]

---

[١] أشد على أيديكم، قصيدة (إلى عمال موسكو) ، ص ٢٢ ، ٢٣، ٢٧ .
[٢] المصدر نفسه ، قصيدة (غغارين)، ص ١٠٣-١٠٥ .
- وانظر أيضاً قصيدة (نشرة أخبار)، ص ١٦٦، ١٦٧ من الديوان نفسه .
[٣] المصدر نفسه ، قصيدة (كوبا)، ص ١٣٧ .
- وأنظر أيضاً قصيدة (عبدان) ، ص ١٤٩ من الديوان نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكعادتهم ، دائماً، فالعمال في شعره هم الذين يخلقون الثورات، فهاهم عمال حي النهر الأحمر " كراسنايا بريسنايا " الحي الصناعي العريق في موسكو يفجرون ثـــورة عام ١٩٠٥ مشعلين - في حيهم الذي كان النبض الحي للثـــورة - حـرب المتـاريس والانتفاضات الشعبية [١] يقدمون الشهداء، ويصنعون مستقبل الاجيال القادمة ، وينيرون لها الطريق ، لتكمل المشوار في درب الثورة :

– كم عاملاً هوى هنا

في دمه غريق

تشق صدره

فصائل القوازق.. والرقيق

وصدره ..

شق للمستقبل الطريق

– تمضي به عاصفة من الشباب

فخذه يا رفيق

لواءنا الذي يستعجل الشروق

ارفعهُ عالياً

و واصل الطريق [٢]

وقادة الثورة والكفاح - عنده - عمال واعون جرائم الســـلطة ، واســتبدادها، و تعاونها مع الاستعمار، يحفزون الشعب على الكفاح ضدها وضد الاستعمار، ويقومـــون بتثويره :

---

[١] أنظر: أشد على أيديكم، قصيدة (كراسنايا بريسنايا)، ص ٧٢ .

[٢] المصدر نفسه ، القصيدة نفسها ، ص ٧٢-٧٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعلا بين ذي الجموع خطيب

رجل ، ليس كالرجال عجيب

ملء عينيه عزمه يتوقد

ألف شيطان فيهما يتمرد :

الأراجيح لا تزال تغذى

من جسوم العمال و الزارعينا

وطن حز عنقه الطامعونا

ملك عاهر ومستعمرونا

الكفاح الكفاح يا شعبنا الحي[١]

نلاحظ مما سبق ان توفيق زيّاد في حديثه عن العمال في البعد الأممي، إنما يتحدث عن الشعوب أينما كانت، وهو بذلك يكرر نظرته الى الشعب على أنه العمال في البعد الوطني،مما يؤكد ان العمال و الشعب في شعره - عموماً - وجهان لعملة واحدة .

المرأة :

تحضر المرأة في شعر توفيق زيّاد أماً ، وزوجة ، وأختاً ، ومعشوقة .

المرأة الأم : عندما يتوجه شعراء الأرض المحتلة الى أمهاتهم، يذوبون حباً، وحناناً، وشوقاً وإنسانية وطفولة[٢] . وتوفيق زيّاد ليس بأقل منهم، فالأم في شعره هي الحبيبة الجميلة المعبودة المقربة من العين و القلب :

---

[١] أشد على أيديكم، ص ١٦٠ .

[٢] أنظر : شعر الأرض المحتلة ، ص ٣٧٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- أمي الحبيبه
لك مني مئتا قبله
- أماه
يا أجمل ما في العالم الرحب
يا حبة العين التي أعبد .. يا قلبي[١]

وهي الحزينة التي تسهر والقمر تحاكيه حكايات الوطن المحتل والشعب المعذب والأبناء المقهورين :

ماذا تقول الريح
عن أمي التي
تحب أن تساهر القمر
تحكي له حكاية " حزينة "
تفتت الحجر ؟ [٢]

وتربي أبناءها على العزة والإباء، وحب الوطن، والاعتزاز بالكرامة، والثورة ضد الاستعمار:

- لا تعذلي ! لولا حليبك في دمي
ما شرف القيد الملوث معصمي
أرضعتنيه عصارةً سحريةً
فوقفت للشعب الأبي ترنّمي
وبعثت أغنية درجت على
وطن الجراح تعينه كالبلسم
- دري حليبك جدولاً لا ينتهي
مزج الكرامة واللهيب المضرم
دري .. ففي ثدييك سر دمارهم
" نفسي فداك علمت أم لم تعلمي "[٣]

---

[١] أشد على أيديكم، قصيدة (رسالة عبر بوابة مندلباوم)، ص ١٠٧، ١٠٨ .
[٢] سجناء الحرية ، قصيدة (شباكي وأنا)، ص ٦١ .
[٣] عمان في أيلول، قصيدة (يا أم)، ص ٩١، ٩٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتنتظر عودتهم بفارغ الصبر عندما يتغيبون، فإن طال غيابهم انطلقت تسـائل عنهم المارة ، وتبحث عنهم في الزقاق :

* وأمي في الباب موجعة - تنتظر

تسائل هذا وذاك بقلب حزين

* تتمتم في لوعة مرة

وتسحبني للزقاق الحزين

نحدق في أوجه العابرين [١]

وتصاب بالقلق ، فيلهج لسانها بالدعاء لهم أن يرعاهم الله ويحميهم من كل مكروه:

* وأمي موجعة - تنتظر

بعينين من مطر وعقيق

" انشله .. يا رب من كل ضيق "[٢]

وحين تفجع بموتهم على يد جنود الاحتلال تسقط حزناً وكمداً وهما :

- ونلمح في الضوء شرذمة من جنود

وتصرخ أمي

وتسقط كومة هم [٣]

لكنها تقف متحدية في وجه الجنود دون بكاء أو عويل ، وتتحول رمزاً تتمثل فيه كل أم في وطن الكفاح والجهاد الغالي، تفقد كل يوم أحد أبنائها، فتعتاد فقدانهم في سبيل الوطن وتتحدى الاحتلال ، بأن تلد غيرهم :

---

[١] أشد على أيديكم، قصيدة (خائف يا قمر)، ص ١٢٥، ١٢٦ .

[٢] المصدر نفسه ، القصيدة نفسها ، ص ١٢٩ .

[٣] المصدر نفسه ، القصيدة نفسها ، ص ١٣٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أمه لم تبكِ
إن الوطن الغالي
يكوي كل قلب
جمدت في عينها الدمعه
صارت حجراً .. دفتر إملاء
وصارت جمره .. وجدان شعب
ومضت تهتف كاللبوة
في وجه الجنود :
" إن في رحمي
عدنان *
جديد
إن في رحمي - يا محتل -
عدنان *
جديد .. " (١)

المرأة الزوجة : لعل في زواج توفيق زيّاد مؤشراً قوياً على نظرته المتحررة التقدمية تجاه المرأة، حين تزوج (نائلة) مسيحية الديانة، وبقي كل منهما على دينه دون ان يجبرها على الإسلام .

وتصف زوجته طريقته في التعامل معها ، فتقول : " تعامل معي بثقة وبلحترام وبمحبة. لم أشعر مرة بنقص لكوني امرأة، بل بالعكس أخذ رأيي بالاعتبار في أمورنا المشتركة وأتاح لي حرية القرار في الأمور التي تتعلق بي " (٢).

---

* هكذا وردت في الديوان والصواب في الحالين (عدنان) وتصرف للضرورة فتصبح (عدناناً)أما (جديد) فالصواب (جديداً) وجعلت (جديدْ) حفاظاً على القافية .

(١) انا من هذي المدينة، قصيدة (عدنان وعدنان جديد * كعكة العيد وقميص القصب *)، ص ٤٤-٤٦

(٢) أنظر : السيرة الذاتية ، ص ٢٠
و في ذكرى الأربعين ، ص ٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والزوجة في شعره هي الجميلة التي تكمل دور زوجها وتعمل معه جنباً الى جنب، وتعينه على أعباء الحياة :

لقد تزوجت ببنت الجار من مده
تعينني في عمري المملوء بالشده
إن تلمحيها .. قلت : ذي نعنعة البلده[١]

وتمنحه الحب :

غير الخبز اليومي
وقلب امرأتي
وحليب الأطفال
أنا لا أملك شيا [٢]

وإذا فقدته ، بكتة إخلاصاً ووفاءً وحزناً .

جلست في قرنة الغرفة تبكي امرأة حبلى
وبنت وصبي[٣]

المرأة الأخت : حضور الأخت في شعر توفيق زيّاد لا يكاد يذكر، فلم ترد إلا في موضع واحد تبكي حبيبها الذي اغتاله جنود الاحتلال :

ماذا تقول الريح
عن أختي التي تشق
كل يوم ثوبها الجديد
على حبيبها الذي يعلقونه
على الخناجر الجنود ؟[٤]

---

[١] أشد على أيديكم، قصيدة (رسالة عبر بوابة مندلباوم)، ص ١١٠ .
[٢] عمان في أيلول ، قصيدة (الكلمات)، ص٨٥ .
[٣] سجناء الحرية، قصيدة (حادث ليلي)، ص ٤٩ .
[٤] المصدر نفسه ، قصيدة (شباكي وأنا)، ص ٦٠ .
- وانظر طريقته في معاملة أخوانه، في كل من :
- السيرة الذاتية ، ص٢٠.
- في ذكرى الأربعين ، ص ٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المرأة المعشوقة : تمثل المرأة المعشوقة في شعر توفيق زيّاد جانب الغـــزل . وحين يصور شوقه وحنينه للقاء معشوقته يستخدم عبارات بسيطة دالـــة معـــبرة " دون مبالغة في وصف الهوى والعذاب . وهذا طبيعي، فهو يستطيع أن يرى معشوقته متـــى شاء وفي أي مكان"[١]

ويعبر عن هذا الشوق بصور فنية خالية من التعقيد :

أصبتني الذكر الأوائل

لهواك يا أم الجدائل

واشتقت حتى ذاب قلب

لم تذوبه النوازل

عندي لها شوق يشب

وعندها شوق مماثل [٢]

ولا يذكر اسم معشوقته على الملأ، وإنما يكنيه :

يا قطرة الخمر ما كنيت عن عجز

فإن لاسمك عندي.. نكهة الخمر[٣]

وهذا هو نهج العذريين في حبهم ، ولعله ما دفع الدكتور عبد الرحمـــن يـــاغي لجعل قصائده (ذكريات)، و (أم الجدائل)، و (متى نلتقي) ضمـــن القوالـــب الجـــامدة الصلبة التقليدية التي تمثل تدرباً على أصول العروض . [٤]

---

[١] انظر الحركة الأدبية ، ص ٣٢٣ .

[٢] أشد على أيديكم، قصيدة (أم الجدائل)، ص ١٠٠ .

- وانظر أيضاً قصيدته (ذكريات)، ص ٩٦ من الديوان نفسه .

[٣] المصدر نفسه ، قصيدة (متى نلتقي)، ص ٩٩ .

[٤] انظر رأي الدكتور عبد الرحمن ياغي مفصلاً في كتابه :

- شعر الأرض المحتلة في الستينات ، ص ٣٦٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي قصيدته (حكاية تطول)يتغزل بتفاصيل الجسد ، لكن دون فحش في التصوير :

ألتقط النجوم

أشكها قلادة لعنقك الصغير

وفي المساء

وحينما تنطفئ السماء

وتحضن الوسادة البيضـــــاء رأســك

الغرير

تنام في سلام

قلادتي .. تنام في سلام

مع اليمام

في صدرك المفتح الحرير[١]

وحب معشوقته الذي يكبر كل يوم هو ما يمنحه الغنى :

أنا فقير ..

لكنني بحبك الذي يزيد

أمتلك الكثير :

العاج والياقوت والفيروز

وكل ما يضم فرعك الأصيل

من كنوز [٢]

---

[١] أشد على أيديكم،ص ٧٨ . وانظر أيضاً في المجال نفسه قصيدتيه : (متى نلتقي)، ص٩٨، ٩٩، و (عـــن النبيذ واللهب)، ص ٨٢، ٨٣، من الديوان نفسه .

[٢] المصدر نفسه ،قصيدة (الوثاق الحرير)، ص ٨٠، ٨١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويلاحظ أنه حين يتغزل بتفاصيل الجسد ويعبر عن اغتنائه بالحب يقترب في صوره و أسلوبه من أسلوب الشاعر نزار قباني، وينهج نهجه. ولعل هذا ما جعل الدكتور (عبد الرحمن ياغي) يعد غزله في هذا النمط من القصائد أكثر رقة وعذوبة وأناقة، حيث يرى قصيدته (عن النبيذ واللهب) قد مثلت الحب الخالص الذي لا تخالطه أية عاطفة أخرى. أما قصيدتاه (حكاية تطول) و (الوثاق الحرير) فقد بدا فيهما الحب أصفى وأحلى - كما يرى-[١] .

والمرأة - بصرف النظر عن وصفها ونعتها - في شعر توفيق زيّاد واعية أخطار الاستعمار، ولذلك فهي ثائرة متحدية مناضلة تكافح الاستعمار جنباً الى جنب مع الرجل، عذراء كانت :

تلك ..

عذراء من عذارى العراق
قد تلاقت وسربها في اتفاق
يتحدين مع جموع الرفاق
ظلمات المستعمر الأفاق[٢]

أو متزوجة :

الموت والعبيد قادمون من بعيد
فلنحفر التراب يا امرأه !
لن نبرح المكان
لن يعبر الأوغاد[٣]

ولذلك دعا الى تحريرها من الظلام الفكري، والاعتراف بدورها الفاعل في المجتمع، وإحقاق حقوقها " فالظلاميون يريدون طمس دورها وكبتها وإبقاءها في البيت

---

[١] انظر رأي الدكتور عبد الرحمن ياغي مفصلاً في كتابه :
- شعر الأرض المحتلة في الستينات ، ص ٣٨٦، ٤٠١ .

[٢] أشد على أيديكم ، قصيدة (وثبة الجسر)، ص ١٥٩، ١٦٠ .

[٣] سجناء الحرية ، قصيدة (نخلتنا تطلق من جديد)، ص ٦٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمطبخ. ونحن نريدها إنساناً لها احترامها ومكانتها وإرادتها ودورها ، من حقـــها ان تعيش وتعمل وتتطور مثل الرجل تماماً " . [١]

الطفولة :

غنى توفيق زيّاد للأطفال ، وحاول أن يمسح دموعهم ، ويرسم الضحكة علـــى وجوههم. واقترن حبه لهم بحبه الحياة بما فيها من مظاهر الخضرة والجمـــال، فغنّـــى للحياة ممثلة بهم مانحاً إياهم قصائده التي هي كل ما يملك :

- وأعطي نصف عمري للذي
يجعل طفلاً باكياً
يضحك
- وأعطي نصفه الثاني، لأحمي
زهرة خضراء
أن تهلك
- أغني للحياه
فللحياة وهبت كل قصائدي
وقصائدي
هي كل
ما أملك [٢]

حتى أصبح صديقهم :

عمر كان صديقي
وصديق الأهل والجيران - كان [٣]

الذي اهتم بأدبهم يقرأ لهم الكتب والحكايات التي تناسب هواياتهم وسنهم :

---

(١) انظر : - السيرة الذاتية ، ص٢٠ .
- في ذكرى الأربعين ، ص ٣١، ٣٢ .

(٢) كلمات مقاتلة ، قصيدة (المغني)، ص ١٥، ١٦ .

(٣) أنا من هذي المدينة ، قصيدة (موت صديقنا الصغير عمر)، ص ٦١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لم أكن في البيت لما
شاع في الحي الخبر
كنت في معرض " إبراهيم " للكتب التي
تحكي حكايا للصغار
أشتري بعض الذي يصلح أن أرويه
للطفل عمر[١]

وليس أدل على أهتمامه بأدب الأطفال من تعداده سبعاً وخمسين قصة وحكاية عربية وعالمية من حكايات الأطفال وقصصهم التي تفتح آفاقهم، وتنمي اتجاهاتهم الإيجابية، وترسخ فيهم القيم الخلقية العالية . في قصيدته (موت صديقنا الصغير عمر)[٢]

وهذا الاهتمام هو ما عبرت عنه زوجته (نائلة زيّاد) في قولها : " كان حلمك الأكبر ان تتاح لك الظروف لإنجاز كل ما رغبت، وفكرت به من أعمال أدبية : (شعر، فلكلور ، قصة ، وأدب للأطفال)[٣] .

وهو في حبه الأطفال يحبهم أحياء وأمواتاً على حد سواء ، ودون تمييز بينهم من أي بلد كانوا وأي شعب ، في كل زمان ومكان، مؤكداً بذلك البعد الإنساني الواسع في شعره خصوصاً في هذا المضمار :

وسلاماً أيها الأطفال .. فوق الأرض ..
تحت الأرض
في المهد وفي اللحد .. وأحياء وأموات
ومن كل بلاد .. كل شعب
كل وقت وزمان ومكان[٤]

---

[١] أنا من هذي المدينة ، قصيدة (موت صديقنا الصغير عمر) ، ص ٦٣ .
[٢] انظر أسماء القصص والحكايات، ص٦٦-٦٨ من المصدر نفسه.
[٣] انظر مقدمة المصدر نفسه على لسان نائلة زيّاد ، ص ٣ .
[٤] المصدر نفسه ، قصيدة (موت صديقنا الصغير عمر)، ص ٧٢، ٧٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتسع أفق الطفولة في شعره ، فعندما يتحدث عن طفل بعينه، فإنه يصبح عنده رمزاً، لا يمثل ذاته فقط، بل يتجسد فيه كل طفل، فهو زمز الطفولة التي تمثل - بدورها - الحياة بامتدادها الزمني الطويل البعيد :

عمره عامان .. ؟؟ .. بل مليون عام

عمره عمر الحياه
كل طفل عمره عمر عمر
كل طفل - عمره مليون عام
كل طفل ..
عمره .. عمر .. الحياه !![1]

وهذا بحد ذاته يؤكد الامتداد العميق لمضمون (الطفولة) ضمن البعد الإنساني في شعر توفيق زيّاد .

وتجدر الإشارة إلى أن أعمالاً عديدة له ترجمت إلى الألمانية والفرنسية والإيطالية والإنجليزية والروسية ، بسبب النزعة الإنسانية التحررية فيها، ورسالة السلام التي تحملها، دون تعصب قومي أو عرقي أو مذهبي . [2]

في نهاية هذا التطواف في شعر توفيق زيّاد ، يتضح لنا من خلال مضامينه الترابط الوثيق بين هذه المضامين على مستوى البعد الواحد، والتناسق والتناغم بينها على مستويات الأبعاد الثلاثة : الوطني والقومي والإنساني معاً . بحيث سارت أبعاده الثلاثة معاً جنباً إلى جنب، فكأن الفكرة كانت تتولد في البعد الوطني، ثم تأخذ بالاتساع في دائرة البعد القومي، لتبلغ اوجها الممتد بلا حدود ضمن البعد الإنساني. وعلى الوجه المقابل تكون الفكرة عامة في البعد الإنساني، ثم تبدأ تدخل دائرة التحديد والتخصيص في البعد القومي، إلى أن تصبح معينة تماماً في البعد الوطني .

وعلى سبيل المثال - لا الحصر - يبدو الترابط واضحاً جلياً بين مضموني (الوطن والأرض) ضمن البعد الوطني، ومضموني (الشعب والأمة) ضمن البعد القومي، ومضموني (السلام والحرب) ضمن البعد الإنساني .

---

[1] أنا من هذي المدينة ، قصيدة (موت صديقنا الصغير عمر)، ص ٧٣ .

[2] الحركة الأدبية ، ص ٤٩٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما على مستويات الأبعاد الثلاثة، فقد ظهر التناغم واضحاً في مضمون (الشعب) فحبه لشعبه المكافح العامل ، يأتي في منظور حبه للشعوب العربية الصامدة، الذي ينعكس ضمن حبه الشعوب الثائرة المكافحة في جميع أنحاء العالم، من منطلق إيمانه العميق بأخوة الشعوب، والتضامن الأممي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشكل الفني

عادة ما يتناول الشكل الفني لعمل شعري ما من حيث جوانب اللغة، والصورة، والبناء والوزن والإيقاع. وهذه الجوانب في حقيقتها هي أسلوب الشاعر، فهو ينظم القصيدة بمستوى ما من اللغة، على وزن معين، في بناء محدد ، مستخدماً صوراً شعرية بسيطة أو معقدة وفقا لطبيعة اللغة من حيث السهولة والصعوبة، وكماً وفقاً لما يقتضيه بناء القصيدة من حيث الطول والقصر، ووفقاً لما يقتضيه الوزن من إيقاع صاخب أو هادئ. وهذا كله يؤكد ترابط الجوانب السالفة معاً. إذ يجب درسها معاً بصورة مترابطة ولكن الفصل بينها يكون تسهيلاً لأغراض البحث والدرس .

اللغة :

إن المتتبع أشعار توفيق زيّاد يجد لغته فيها سهلة يسيرة مفهومة خالية من التعقيد . وهو بذلك ينهج نهج مدرسته الواقعية التي توجه أدبها - بشعره ونثره - إلى السواد الأعظم من الشعب، وحيث أن الشعر عندها هو المعادل الفني للواقع، فلا بد أن تتناسب لغته مع الجمهور الموجه إليه . وقد سار توفيق زيّاد على هذا، فنظم أشعاره انطلاقاً من مذهب (الفن للحياة) - إن جاز التعبير - فكان يكتب للجماهير والجماعة، ليعبر من خلال أشعاره عن واقع الحياة المعيش ، مصوراً قضاياهم وهمومهم في حياتهم اليومية من جوانبها المختلفة تصويراً فنياً .

ويمكن القول إن لغته على مستويين :

- **مستوى الفصحى العادية** التي لا مهجور فيها ولا غريب ولا تخصصي ، ويميل فيها الى التيسير، فنراه يعرف الأسماء أو المعاني التي قد لا يعرفها القارئ . فعلى سبيل المثال نراه يوضح معنى " ضيزى " في قصيدته (قسمة ضيزى) قبل البدء بالقصيدة : " قسمة ضيزى- تعبير قرآني (سورة النجم الآية ٢١، والمعنى غير منصفة . الفعل ضاز أي ظلم وجار " [١] .

ويفرد في نهاية ديوانه (أنا من هذي المدينة) ملحقاً خاصاً يعرف فيه عدداً من الأسماء.[٢]

---

[١] أنظر : أنا من هذي المدينة ، ص ٧٤ .

[٢] انظر المصدر نفسه ، ص ١٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- **مستوى الفصحى المبسطة** : وهي التي احتوت ألفاظاً عامية استقاها من اللهجات المحكيـــة . وقد برز هذا المستوى بوضوح في قصائده التي نهج فيـــها النـــهج القصصـــي، وتنـــاول فيـــها شخصيات معروفة للعامة . وازداد بروزاً ووضوحاً في قصائده التي التقت فيـــها لغـــة الشـــعر بالموروث الشعبي ، كقصيدة (سرحان والماسورة) حيث يستعين بأهزوجة شعبية تمثل لقـــاء الأم بجثمان ابنها في مقطوعة (أمه ترثيه) ناثراً لغة الموروث الشعبي في ثنايا القصيدة بعد أن هذبـــها وحاول إخضاعها لمعايير الفصاحة ، مؤكداً بذلك أن لغة الشعر يمكن أن تفيد من اللهجة المحكية لا أن تنقلها بحرفيتها .[١] وقد بدا هذا واضحاً فـــي قصـــائده (عـــذب الجمـــال)، و (حـــرام)، و (الأزواج والزوجات)، و (أغنية زفاف)، و (تهليلة) [٢] و (عربسك قادم) . [٣]

وسيتضح هذا الأمر أكثر عند الحديث عن (توفيق زيّاد الناقد) لاحقاً. وقد تطورت لغـــة توفيق زيّاد الشعرية تبعاً لنضجه الفني، ففي البدايات كان يلجأ الى اللغة المباشـــرة، ومـــن هنـــا جاءت لغته تجسد الواقع تجسيداً حرفياً، إلا أنه مع نضجه الفني شيئاً فشيئاً راح يلجأ الـــى لغـــة الرمز والإيحاء في تصويره الواقع أو استعادته صورة التاريخ بأحداثه المختلفة [٤].

ونراه يوظف لغته في خدمة الفكرة التي يطرحها عبر القصيدة لمعالتجـــها وإيصالـــها ، فعلى سبيل المثال: ها هو يستخدم التركيب اللغوي (قبل أن يجيئوا) في القصيـــدة التـــي تحمـــل التركيب نفسه عنواناً لها في حديثه عن المحتلين الصهاينة، بدلاً من تركيب (قبـــل أن يعـــودوا)، لأنه يركز جل اهتمامه لدحض النظرة الصهيونية لفلسطين بأنها أرض الميعاد [٥] .

ونجد الشيء نفسه في قصيدته (رجوعيات) حين يصف أبناء شعبه الذين شردوا خـــارج وطنهم بـــ (الغياب) بدلاً من (اللاجئين) أو (المهاجرين) لأنه معني بتحديد هويتهم مـــن خـــلال

---

[١] انظر : فصول ، مجلد ١٥ ، عدد٤ ، ص ١١١، ١١٢ . وانظر أيضاً :
- توفيق، زياد ، صور من الأدب الشعبي الفلسطيني ، مطبعة أبو رحمون، عكا، ط ٢. ١٩٩٤، ص ١٥

[٢] انظرها جميعاً في ديوانه كلمات مقاتلة ، ص ١٠٦ - ١١٩ .

[٣] انظرها في ديوانه عمان في أيلول، ص ٩٤ .

[٤] انظر : فصول، مجلد ١٥، عدد ٤، ص ١٠٧، ١٠٨ .

[٥] انظر : فصول ، مجلد ١٥، عدد ٤، ص ١٠٧، ١٠٨ .
- وانظر القصيدة في ديوانه سجناء الحرية ، ص ٥١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وطنهم الذي غابوا عنه، لا من خلال المكان الذي لجؤوا إليه .[١] وهكذا يتضح ارتباط اللغة بالمضمون في شعره .

ورغم قدرته في استخدام الطاقة الإيحائية للغة إلا أنه لا يمتلك القدرة على استخدام تراكيبها المحددة استخداماً صحيحاً. فعلى سبيل المثال : نراه في قصيدته (قسمة ضيزى) يستخدم خطأ تركيب (بعضُنا البعض) حيث يقول :

أما لنا فالحق أن نقتل في الحرب

ونفني بعضُنا البعض [٢]

والصواب : ويفني بعضُنا بعضاً .

كما يفتقد استخدام أدوات اللغة المحددة الخاصة بالأساليب اللغوية . ويبرز هذا بوضوح غير مرة في استخدامه (حرف الباء) للدلالة على الإسقاط والاستبدال. فيقول في قصيدته (الندابة):

مستبدلاً فكر الجماهير

بفكر النرجس الطالع فيه [٣]

وهذا يقلب المعنى المراد الى الضد ، لأن (الباء) تتصل بالمراد إسقاطه واستبداله، وعليه فالصواب وفق المعنى الذي يريده :

مستبدلاً فكر النرجس الطالع فيه

بفكر الجماهير .

---

[١] انظر : فصول ، مجلد ١٥، عدد ٤، ص ١٠٤ .

– وانظر أشد على أيديكم قصيدة (رجوعيات / المصلوب)، ص ٥٠ .

[٢] أنا من هذي المدينة ، ص ٨٢ .

[٣] المصدر نفسه ، قصيدة (الندابة / عن السرايا والقرايا)، ص ١٠١ . وانظر في المصدر نفسه والقصيدة نفسها مقطوعة (عن الأصل والظل) خطأ اخر في الاستخدام نفسه ، ص ١١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ليس هذا فحسب، فتوفيق زيّاد لا يتقن عدداً من الأساليب في النحو العربي، مما يترتب عليه وقوعه في الأخطاء النحوية . فلا يتقن أسلوب (التقديم والتأخير) فيما يتعلق - بشكل خاص - بتأخير اسم (إنّ) على خبرها، فيقول :

أخي

إنّ في الأفق صوتٌ يمور [١]

والصواب: (صوتاً) اسم إنّ مؤخر منصوب .

ولا يتقن (الإتباع) فيما يتعلق بالنعت والمنعوت، فها هو يرفع (سمج) في قوله :

أما السجان فإنّ له

وجهاً سمجٌ مثل القرد . [٢]

ظناً منه بأنّها خبر إنّ مرفوع، والصواب (سمجاً) على أنه نعت منصوب لـــ (وجها) إسم إنّ المؤخر . ومرة أخرى يخطئ في (الإتباع) فيما يتعلق بالمعطوف والمعطوف عليه، في قوله :

معه فيزا وتأمينُ حياةٍ

وضمانات أخر. [٣]

والصواب (ضماناتٌ) معطوف مرفوع على (تأمينُ).

وعلى أية حال، وأياً كانت الأخطاء التي وقع فيها توفيق زيّاد في لغته، فالمهم أن نعي أنه كان يهدف من خلال أشعاره الى تقريب المسافة بين المبدع والمتلقي، من خلال لغته السهلة اليسيرة البسيطة، وبذلك نجح في الابتعاد عن الوقوع في فخ الإغراب عن شعبه، حين اقترب

---

[١] كلمات مقاتلة، قصيدة (كفر قاسم)، ص ٧٣، وانظر الخطأ نفسه يتكرر في قصيدته (عدنان وعدنان جديد) في ديوانه (أنا من هذي المدينة) ، ص ٤٦ .

[٢] المصدر نفسه ، قصيدة (أغنية زفاف)، ص ٩٩ .

[٣] أنا من هذي المدينة، قصيدة (قسمة ضيزى)، ص ٧٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بلغة الشعر من لغة الحياة اليومية [١] مخالفاً أصحاب المذهب القائل : إن " خصوصية اللغة مقوم أساس من مقومات الشعر، إذ لو لا ذلك لانهارت الحواجز بين لغة الفن ولغة الحياة، وهي حواجز طبيعية أصيلة من الخير للفن أن تظل قائمة " [٢]. ولا يعني هذا عدم إيمانه ببقاء شيء من الخصوصية للغة الشعر ، فقد كان يهدف إلى تيسير لغته الشعرية ولكن دون الانفلات التام من خصوصية هذه اللغة.

الصورة الشعرية :

يهدف التصوير الفني الى الارتقاء فوق معطيات الواقع الخارجي ،ليبلغ أعماقها، ويقف على الإنساق الخاصة التي تنتظمها، وتتصل بالإنسان في علاقته بالكون والطبيعة والواقع المعيش . [٣] وهذا يتماشى مع نهج المدرسة الواقعية . لذلك حاول توفيق زيّاد تطبيقه من خلال أشعاره . وقد تطورت قدرته على التصوير الفني تبعاً لنضجه الفني، فنراه في بداياته متأثرا بالمعايير التقليدية والفهم السائد في تصويره الأمور . فالحرب عنده - مثلاً - احتكار لمعايير القوة ، وليست استنفاداً للوسائل السلمية للدفاع عن العدالة ، ولذا كانت هزيمة العرب عام سبعة وستين ميلادياً إحساساً بالعار حتى العظم لدى كل عربي - على حد تعبيره - حيث يقول :

وعلينا كان أن نشربه
حتى الزجاج
كأسنا المر المحنى
ونحس العار حتى العظم منا. [٤]

ولكن هذا النمط التصويري راح يتحول شيئاً فشيئاً مع تقدمه في تجربته الشعرية، ونضجه الفني .

---

[١] أنظر : د . يوسف حسين بكار، بناء القصيدة في النقد العربي القديم (في ضوء النقد الحديث)، دار الاندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٩٨٣م، ص ١٤٢ . وانظر أيضاً في هذا المجال :
- د . محمد النويهي ، قضية الشعر الجديد ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٦٤ .
- د . محمد النويهي، الشعر الجاهلي - منهج في دراسته وتطبيقه - الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة

[٢] كولردج ، سيرة أدبية (النظرية الروما نطيقية في الشعر)، ترجمة الدكتور عبد الحكيم حسان، دار المعارف، مصر ، ١٩٧١م

[٣] انظر : د. عدنان حسين قاسم، التصوير الشعري التجربة الشعورية وأدوات رسم الصورة الشعرية ، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، ص ١٣٩.

[٤] سجناء الحرية، قصيدة (ادفنوا أمواتكم وانهضوا)، ص ٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويرسم توفيق زيّاد صوره اعتماداً على الخيال الشعبي المتأصل في البيئة الشرقية[١] كي يجعل الصورة قريبة من الفهم الشعبي . فيرسم صورة (جابي الضرائب) بأنه صاحب الوجه الكريه الذي لا يطاق :

ولكن جابي الضرائب يأتي
بوجه صفيق
يحف به موكب
من الشرطة العابسه[٢]

كما يرسم صوره الشعرية من خلال المكان أو البيئة . ففي (سرحان والماسورة) مثلاً يستقي صوره من بيئة البادية مكان تمركز عرب الصقر قبيلة سرحان[٣] فيصور شدة الظلام كالفحمة كما هي الحال في البادية، ومعرفة سرحان بتفاصيل الأرض وتضاريسها كمعرفة كلب الأثر الذي يكثر استخدامه في البادية . حيث يقول:

كانت الدنيا مطر
وظلام الليل كالفحمه
إنما سرحان كالقط
يرى الإبرة
في الليل الكثيف
إنه يعرف هذي الأرض
كالكف
كما
يعرفها
كلب
الأثر[٤]

---

[١] انظر : فصول ، مجلد ١٥، عدد ٤، ص ١١٤ .

[٢] أشد على أيديكم ، قصيدة (ضرائب)، ص ١١٧ .

[٣] انظر : فصول ، مجلد ١٥، عدد ٤، ص ١٠٩ .

[٤] عمان في أيلول، قصيدة (سرحان والماسورة)، ص ٦٦، ٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما أنه يؤرخ بصوره الشعرية لحوادث جماعية، فهو في القصيدة السالفة لا يمتدح سرحان فحسب، إنما يسجل نموذجاً للثورة الشعبية التي قامت على أكتاف الكادحين الذين تضرروا قبل غيرهم من سلطة الانتداب والمشروع الصهيوني[١].

ويكون الأداء جميلاً بتزاوج المعاني في الشرط والجزاء[٢] وهذا ما طبقه توفيق زيّاد في قصيدة (قسمة ضيزى) من خلال استخدامه اسم الشرط (كلما) غير مرة في مواضع عدة من القصيدة .[٣]

ومع نضجه الفني أصبحت صوره الشعرية تحمل كل ما يهدف اليه بعيداً عن التعقيد والتعبير المباشر، إنما من خلال البساطة والرمز الفني المؤثر البسيط[٤] .

ولعل هذه البساطة وهذا الرمز البسيط يظهران جلياً في الصور التالية من قصيدته (نشرة أخبار) في المقاطع التالية :

- الكونغو
دم لومبا ما زال يصيح
والكونغو حمراء ككف عروس
رغم ذئاب الأمم المتحده
والعار المدعو " هامر شولد "
- سموها باسم لومبا
أجمل ما في افريقيا من ماس
- الثلج يذوب
ومع الثلج تذوب طلاسم
ويشق الظلمة سيف ضياء[٥]

---

[١] انظر : فصول ، مجلد ١٥، عدد ٤، ص ١١١ .

[٢] انظر : الأسلوب الصحيح في البلاغة والعروض ، تأليف جماعة من الأساتذة ، منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت، ١٩٦٤، ص ٢٨ .

[٣] انظر هذه المواضع في الحديث عن السلطة في البعد الوطني من هذه الدراسة.

[٤] انظر : شعر الأرض المحتلة ، ص ٤٠٣، ٤١٢، ٤١٤ .

[٥] أشد على أيديكم ، ص ١٦٦-١٦٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ها هنا الأطفال ينمون سريعاً
مثلما تكبر مأساة
وتستشري حريقه
مثلما تنمو
عروق الورد والسوسن
في وسط حديقه
وكما يكبر جرح الوطن المصلوب
في مليون شكل
وطريقه [١]

ويراوح توفيق زيّاد في تصويره بين الصورتين المسموعة والمرئية، فنراه يحول الصورة المسموعة الى صورة ملموسة حيناً :

أسمع صوتك
خشناً مثل يدي حجار [٢]

والى صورة مرئية حيناً آخر :

إني أسمع صوتك
شفافاً
مصلوباً
مطعون .. [٣]

ويقوم بتحويل المادي الجماد الى مادي حي ، فيصور المكان يعرف أهله، في مخاطبته (مرج ابن عامر)، معبراً بذلك عن الشوق والحنين المتبادل بين الإنسان والمكان :

وعرفتني لما أتيتك
بعد غيبتي الطويله ،
مستفيض الشوق زائر .[٤]

---

[١] أنا من هذي المدينة ، قصيدة (عدنان وعدنان جديد (كعكة العيد وقميص القصب))، ص ٤٢، ٤٣ .
[٢] عمان في أيلول، قصيدة (عمان في أيلول / نماذج عادية عن شعب غير عادي)، ص ٢٦.
[٣] المصدر نفسه ، القصيدة نفسها ، ص ٢٧ .
[٤] المصدر نفسه ، قصيدة (مرج ابن عامر / العصارة)، ص ٥٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويجسد المعنوي، فيصور الأفراح إنساناً يصلب :

فاحذروا خطوتنا
يا صالبي أفراحنا ..
إننا لا نلعب [١]

وقد عني توفيق زيّاد بدقة التصوير ، فها هو يصور الجو الماطر بما يحمله من ريح وبرد تصويراً دقيقاً :

كانت الدنيا مطر
وصفير الريح في الأذنين
وحش وجأر
وعلى الوجه يصير البرد
شوكاً وإبر [٢]

وعنايته بدقة التصوير جعلته يعتني بأدق التفاصيل :

يا جذر جذري !! إنني سأعود حتماً
فانتظرني . انتظرني في شقوق الصخر،
والأشواك، في نوارة الزيتون ، في
لون الفراش، وفي الصدى والظل ،
في طين الشتاء ، وفي غبار الصيف ،
في خطو الغزال، وفي قوادم كل طائر [٣]

كذلك كان توفيق زيّاد دقيقاً في وصفه ، يختاره بعناية فائقة :

يقظاً مثل حمار الوحش كان
ككلب الصيد ملفوفاً خفيف
وشجاعاً مثل موج البحر كان
ومخيفاً مثلما النمر مخيف ![٤]

---

[١] سجناء الحرية ، قصيدة (عن العليق والسنديان)، ص ٧٦ .
[٢] عمان في أيلول، قصيدة (سرحان والماسورة)، ص ٦٦ .
[٣] المصدر نفسه ، قصيدة (مرج ابن عامر / شوق العواصف)، ص ٦٣ .
[٤] المصدر نفسه، قصيدة (سرحان و الماسورة)، ص ٦٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأياً كان الأمر، فالصورة الشعرية عند توفيق زيّاد بمستوييها ورموزها على اختلافها يسيرة، وقريبة من أذهان العامة، ومفهومة للجماعة، وواضحة، وشعبية .

الوزن والإيقاع:

مثلت أشعار توفيق زيّاد - في غالبيتها - التيار التقليدي المحافظ [١] . وقد جاءت قصائده في بداياته الفنية متعلقة بالقوالب العربية الأصولية، والعروض والبحور والقوافي العربية ، والأوزان التقليدية . وكأنه يتدرب على هذه الأصول متعمداً حتى يتقنها ويبقى عليها. فراح يصب مضامين قصائده في قوالب جاهزة معدة لها سلفاً صباً من الخارج[٢] .

وقد كتب توفيق زيّاد شعراً حديثاً يقوم في أوزانه على وحدة التفعيلة، لكنه ظل وفيا للوزن التقليدي والقافية، إلا في قصائد قليلة كتبها جرياً مع التيار الذي استقطب عديداً من الشباب في الستينات والسبعينات[٣] .

ويظهر وفاؤه للقافية وأهميتها لديه، في قصيدته (قبل أن يجيئوا) فنراه يكسر الإيقاع الخارجي للقصيدة القائم على تفعيلة (فاعلاتن)، ملحاً بذلك على قافية الميم الساكنة في قوله (لطخها الدم) مما يدل على تمكن المعيار الشعري التقليدي منه . [٤] حيث يقول :

كان هذا، قبل أن جاؤوا

على دبابة ..،

لطخها الدم !![٥]

وعدا عن اهتمامه بالقافية تبرز أهمية البنية الإيقاعية الداخلية لديه في قصيدته (شيء عابر) حيث أراد أن يحافظ على تفعيلة (فاعلاتن)، فسكن الجيم في كلمة (شجرة) كي يستقيم الإيقاع[٦] مع أن القراءة الصحيحة تكون بتحريك الجيم بالفتح.

---

[١] انظر : الحركة الأدبية ، ص ١١ .

[٢] انظر : شعر الأرض المحتلة ، ص ٣٥٥، ٣٥٦ .

[٣] انظر : الحركة الأدبية ، ص ٤٦١ .

[٤] انظر : فصول، مجلد ١٥، عدد ٤، ص ١٠٨ .

[٥] سجناء الحرية ، ص ٥١ .

[٦] انظر : فصول ، مجلد ١٥، عدد ٤، ص ١٠٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقول :

عندما مروا صباحاً فوقها

همست شجْرة توت:

العبوا بالنار ما شئتم

فلا ..

حق ..

يموت .. !![١]

والخلاصة أن توفيق زيّاد لم يلتزم نمطاً واحداً في أوزانه الشعرية، وإيقاعاته الموسيقية، فقد راوح بين الأوزان الحديثة القائمة على وحدة التفعيلة أو وحدة البيت - كما لاحظنا في قصيدتيه السابقتين - والأوزان التقليدية مستخدماً الوزن المناسب للغرض الذي يتناوله في القصيدة، لأن الإيقاع " يحدث تأثيراً خاصاً في النفوس، مما يساعد الشعراء والملحنين على إتقان تأدية المعاني التي يقصدونها "[٢] فعلى سبيل المثال جاءت قصائد الإلقاء - التي قالها في رثاء الشهداء والقاها على العامة - على الأوزان العروضية التقليدية، لما لها من إيقاع موسيقي صخاب رنان في آذان المستمعين، مؤثر في نفوس المتلقين، مشابهة في ذلك قصائد الإنشاد في الشعر الجاهلي، إذ كان يهدف من خلال هذه القصائد الى تثوير الجماهير . فالموسيقى " تستعمل كذلك لإثارة الحمية والحماس في ظروف الحرب، فكانت فرق الضاربين على الطبول والنافخين في الأبواق وغيرها من الآلات الموسيقية تصحب الجيوش المتحاربة لتثير في الجنود روح الإقدام وتحرضهم على القتال . "[٣]

وقد مثلت مطولات توفيق زيّاد من القصائد هذا النمط خير تمثيل ، وبرز هذا بوضوح في مرثيته (عمان في أيلول).

---

[١] كلمات مقاتلة ، قصيدة (شيء عابر)، ص٧ .

[٢] انظر : ميخائيل خليل الله ويردي ، بدائع العروض أحدث وأسهل أسلوب لنظم الشعر على الايقاع الموسيقي، مطبعة ابن زيدون ، دمشق ، ١٩٤٨م ، ص ٥ .

[٣] انظر : أ . د . يوسف بكار، العروض والإيقاع ، منشورات جامعة القدس المفتوحة ، ط ١، ١٩٩٧م، ص٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البناء : اتخذ بناء القصيدة في شعر توفيق زيّاد خمسة أنماط هي :

- **المقطوعة :** جاء القسم الأكبر من قصائده على شكل مقطوعات تقع كل منها في حدود صفحتين الى خمس صفحات. أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قصائد : (أحب ولكن)[١] و (المغني)[٢]و (الكلمات)[٣] و (مليون شمس في دمي)[٤]و (شهيدة)[٥].
- **المطولة القصصية :** وهي القصيدة الطويلة المكونة من مجموعة من الفصول المترابطة التي لا ينفصل بعضها عن بعضها الآخر . وهذه الفصول إما أن تأخذ أرقاماً يضعها توفيق زيّاد قبل بداية كل فصل ، كما في قصائد : (خائف يا قمر)[٦] التي تكونت من ثلاثة فصول، و (قسمة ضيزى) [٧] . التي تكونت من خمسة فصول ، و (وثبة الجسر)[٨] التي تكونت من أربعة فصول . أو أن يأخذ كل منها عنواناً مع رقم إضافةً لعنوان القصيدة الرئيس، وقد مثلت هذا النمط خير تمثيل قصيدته (مرج ابن عامر)[٩] ومرثيته المطولة (عمان في ايلول)[١٠] . وقد برزت في هذا النمط من البناء- وفي القصيدة الأخيرة بالذات - ملامح الفن القصصي بروزاً واضحاً، فالقارئ يستشعر في القصيدة نفس القص وروحه ومن هنا أطلقت عليها هذه التسمية . ويمكن توضيح هذا النمط من البناء من خلال قصيدة (عمان في أيلول) على الصورة التالية :

العنوان الرئيس : عمان في أيلول

عناوين الفصول :

١- تهليلة

٢- يوميات من عرس الدم

---

(١) أشد على أيديكم ، ص ٥ .

(٢) كلمات مقاتلة ، ص ١٥ .

(٣) عمان في أيلول، ص ٨٥ .

(٤) سجناء الحرية، ص ٤٣ .

(٥) أنا من هذي المدينة، ص ١٠.

(٦) أشد على أيديكم، ص ١٢٥.

(٧) انا من هذي المدينة ، ص ٧٤ .

(٨) أشد على أيديكم، ص ١٥٧ .

(٩) عمان في أيلول، ص ٥٢ .

(١٠) المصدر نفسه ، ص ٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣- نماذج عادية ، عن شعب غير عادي .

٤- كلمات عن خصم غير مقطوع الرأس ولكنه بروح واحدة .

٥- أسئلة لا بد منها .

- **المطولة المسرحية :** وهي القصيدة الطويلة المكونة من مجموعة من الفصول المترابطة التي يحمل كل منها إضافة لعنوان القصيدة الرئيس عنواناً مع رقم تنطوي تحته أيضاً عناوين أصغر تكون بمثابة المشاهد المسرحية لذلك الفصل . وبالتالي برزت في هذا النمط من البناء ملامح الفن المسرحي جلية واضحة ، ومن هنا أعطيتها التسمية السالفة . ويمكن توضيح هذا النمط من البناء من خلال قصيدة (سرحان والماسورة)[١] التي مثلته خير تمثيل ، فكانت تشبه الى حد كبير رواية صيغت شعرا [٢] بأسلوب مسرحي . على الصورة التالية :

العنوان الرئيس : سرحان والماسورة

عنوان الفصل الأول : ١- في الطريق

مشاهده : سرحان

مطر

الماسورة

منديل الحرير

عنوان الفصل الثاني : ٢- قبل ذلك

مشاهده : عندما لم يفهم سرحان

.. وعندما فهم

آه لو ينفجر

عنوان الفصل الثالث : ٣- اللحظات الأخيرة

مشاهده: انتظري

والبقية

عنوان الفصل الرابع : أمّه ترثيه .

ويمكن القول: إن هذا البناء قد يبدو معقداً على القارئ إذا ما أخذ مع الأبيات الشعرية المكونة للقصيدة بفصولها ، ولكن متى كان القارئ على علم مسبق بأن هذا البناء على نمط

---

[١] عمان في أيلول ، ص ٦٥ .

[٢] انظر : شعر الأرض المحتلة ، ص ٤١٥، ٤٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مسرحي، فإنه يضع نفسه تلقائياً في جو المسرحية بأحداثها وتفاصيلها من خلال فصولها ومشاهدها .

- **مطولة العناوين** : وهي المكونة من مجموعة من المقطوعات ، تحمل كل منها عنواناً إضافة إلى العنوان الرئيس - تعالج الموضوع نفسه بصورة عامة ، ولكن إذا ما انفرد كل منها بذاته صلح أن يكون قصيدة مستقلة قائمة بذاتها.

وقد مثلت هذا النمط من البناء قصائده : (سجناء الحرية)، و (كلمات عن العدوان)، و (العبور الكبير)[١] و (ست كلمات) [٢] و (الندابة)[٣].

ويمكن ان نبين هذا النمط من البناء ، من خلال قصيدته (ست كلمات)، مثالاً عليه :

العنوان الرئيس : ست كلمات

عناوين المقطوعات : يا بلادي

ثلج على المناطق المحتلة

أمثال

شيء عابر

تلفون

سلمان

- **القصيدة المثل** : وهي القصيدة المكثفة التي صاغها في صورة مثل، واستخلصها من تجاربه الحياتية ، ومواقفه المختلفة[٤] .

وقد مثلتها خير تمثيل مقطوعاته التي انطوت تحت قصيدة (ست كلمات)، أذكر منها مقطوعة (أمثال) التي يقول فيها :

---

[١] سجناء الحرية ، ص ٧، ٢٨، ٩٠ على الترتيب .

[٢] كلمات مقاتلة ، ص ٣.

[٣] أنا من هذي المدينة، ص ٩٠.

[٤] انظر : شعر الأرض المحتلة ، ص ٤٣٥ ، ٤٣٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عن جدنا الأول ،
قد جاء في الأمثال !
واوي ..
بلع ..
منجل .. !!
كل ما تجلبه الريح
ستذروه العواصف
والذي يغتصب الغير
يعيش ..
العمر،
خائف .. !![١]

ومن قصائد المثل الأخرى التي لم تنطو تحت مطولة المقطوعات قصيدة (كيف؟)[٢].

وقد انفردت قصيدة الشهيد ببناء خاص تميزت به عن سواها من القصائد، وينهج توفيق زيّاد فيها نهجين عموماً :

الأول: يقسم فيه القصيدة أربعة أقسام متتالية، يتغير فيها القسم الأول من صورة الشعر إلى صورة النثر. أو يتبدل فيها القسم الأول مع القسم الرابع . فعادة ما يشير أولاً إلى الشخصية موضوع الرثاء إشارة تشكل مدخلاً إلى القصيدة :

أنا خائف يا قمر !

من الليل .. منك .. ومن ضوئك المنكسر

أخوي الكبير .. مضى لم يعد بعد..منذ الصباح[٣]

يأخذ بعدها بتعداد صفات الشخصية الجسدية، من خلال مجموعة من الصور الفنية البسيطة المحببة :

---

[١] كلمات مقاتلة ، ص ٦ .

[٢] انظرها في المصدر نفسه ، ص ١٠ .

[٣] أشد على أيديكم ، قصيدة (خائف يا قمر)، ص ١٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أخوي الكبير ! ألا تعرفون أخوي الكبير .. ؟
ألم تسمعوا عنه، عن خيزرانة نور
وصفصافة نبتت في حوافي غدير
وناي أغان وقارورة من عبير ؟؟
صبا شامخ كله .. وشباب
وهبة بأس بوجه الصعاب
وأجمل وجه وأحلى ثياب
وسن ضحوك
يفتح قدامه . . كل باب !![١]

ثم يتخذ من هذه الصفات مدخلاً لسرد الأحداث [٢] التي انتهت بموت الشخصية واستشهادها:

ونلمح في الضوء شرذمة من جنود
وتصرخ أمي
وتسقط كومة هم
ويقترب الجند من بابنا
وأبكي أنا ..
وتزحف أمي خرساء ليست تعي
وتهوي وأهوي أنا
على شرشف أبيض
تلونه بقع من دماء
" خذوه .. قتلناه .. عند الحدود " [٣]

وقد تكون الإشارة إلى الشخصية - التي تشكل مدخلاً إلى القصيدة - تعريفاً نثرياً بهوية الشخصية، كما نرى في مقدمة قصيدته (سرحان والماسورة):

---

[١] أشد على أيديكم، قصيدة (خانف يا قمر)، ص ١٢٦ .
[٢] أنظر تفصيل الأحداث ، ص ١٢٧-١٢٩ ، من قصيدة (خانف يا قمر). من ديوانه أشد على أيديكم.
[٣] المصدر نفسه ، القصيدة نفسها ، ص ١٣٠، ١٣١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(هو سرحان العلي من عرب الصقر الذي نسف ماسورة البترول في ثـــورة ١٩٣٦)[١]
ثم تأخذ القصيدة النهج السابق نفسه .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن توفيق زياد يستغل شخصية (سرحان العلي) ليبين من خلالـــها أن الوعي قد يتولد نتيجة شدة التعذيب والتنكيل ، فسرحان الذي كان يقول :

أنا.. ؟ ؟ يا ناس خلوني
بعيداً عن حكايات الوطن ! [٢]

خوفاً منه على لقمة خبزه :

من أين إن جعت
ستأتي لقمة الخبز الحلال ؟؟ ![٣]

وكان يعيش بمنطق (اللهم نفسي):

ما دام جلدي سالماً
مالي وما للآخرين ؟ ![٤]

لم يع خطورة الاستعمار المقيم على أرض الوطن ، ولم يفهم ضرورة مقاومتـــه لأجـل وطنه وشعبه، إلا بعد أن نكل به جنود الاحتلال :

إنما لما رأت يوماً
نجوم الظهر عيناه ، فهم
مرة في الطوق مشوه
على ألواح صبار
برجل حافيه
وهوى العسكر بالسوط
على ظهره .. ناراً حاميه
كسروا السكة والعود

---

[١] عمان في أيلول، قصيدة (سرحان والماسورة)، ص ٦٥ .
[٢] المصدر نفسه ، القصيدة نفسها ، ص٧١ .
[٣] المصدر نفسه ، ص ٧١.
[٤] المصدر نفسه ، ص ٧٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وساقوا الماشيه
وبأعقاب البنادق
حطموا السدة ، والباب
وكل الأنيه
نسفوا البيت وصاحوا :
أنت : يا ابن الزانيه !! [١]

ففهم :

عندها سرحان لم يأبه
لنيران الألم
إنما صر على أسنانه
في فمه المملوء دم
إن سرحان .. أخا البنت ..
فهم !![٢]

وتولد لديه الوعي، فأصبح يفكر تفكيراً يحمل في طياته روح الجماعة، تفكيراً يضع فيه الشعوب العربية كاملة - وليس وطنه فحسب - موضع عينيه :

ذات يوم راح سرحان يفكر :
أن أنبوباً على بعد كذا
يدفق فيه النفط قرب " الحارثيه "
يحمل الخير الذي ينبع
من أرض الشعوب العربيه
لبلاد أجنبيه
آه .. يا سرحان .. لو .. لو .. يتفجر ! [٣]

كما أصبح يخطط للتفجير تخطيطاً مدروسا قبل تنفيذه :

---

(١) عمان في أيلول، قصيدة (سرحان والماسورة)، ص ٧٣ ، ص٧٤ .
(٢) المصدر نفسه ، القصيدة نفسها ، ص ٧٤، ٧٥ .
(٣) المصدر نفسه ، القصيدة نفسها، ص ٧٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن أسنانك لا تكفي

ولا يكفي رصاص البندقيه

فتدبر !-

لعنة الله عليك - الأمر

فكر وتدبر !! [١]

وهكذا يؤكد توفيق زيادة أهمية (الوعي) ركيزة أساسية من ركائز الواقعية الجديدة. وقد يجعل توفيق زيادة القسم الرابع (الأخير) من القصيدة مكان الأول، فيبدأ القصيدة بنتيجة الأحداث وهي موت الشخصية :

على الأسفلت .. مات اليوم " عواد الأماره "

رغيف الخبز في يده، وفوق الكتف فأس [٢]

ثم تأخذ القصيدة النهج السابق نفسه .

الثاني : وتكون القصيدة فيه - من بدايتها حتى نهايتها - سرداً للأحداث التي جرت، ويترك فيها للقارئ استنتاج موت الشخصية واستشهادها من خلال الأحداث، ولعل من المهم ان نعرف أن الشخصية هنا (شخصية عامة) لا تمثل شخصاً بعينه، وإنما هي نموذج يعبر من خلاله عن بطش السلطة وممارساتها الدامية، وكذلك لا تحمل الشخصية هنا أسماً معيناً .

وقد مثلت قصيدته (حادث ليلي) [٣]هذا النهج .

والخلاصة أن بناء القصيدة في شعر توفيق زيّاد تناسب مع النهج الذي كان ينهجه فيها. فقصائده التي نهج فيها نهجاً قصصياً كن طوالاً لما يقتضيه هذا النهج من معالجة للأحداث بتفاصيلها، وتتبع لتطورها، وتصوير للشخصيات بجميع جوانبها. عدا عن أنّ توفيق زيّاد كان يهتم بأدق التفاصيل في هذا، ولا يهمل أقلها [٤].

---

[١] عمان في أيلول ، قصيدة (سرحان والماسورة)، ص ٧٧.

[٢] كلمات مقاتلة، قصيدة (مقتل عواد الأمارة)، ص ١٩ .

[٣] انظر القصيدة في ديوانه (سجناء الحرية)، ص ٤٥- ٥٠ .

[٤] انظر : شعر الأرض المحتلة ، ص ٤٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في حين جاءت قصائد المثل قصاراً مكثفة ، وهذا يتناسب مع طبيعة المثل من الإيجـاز والاختصار .

السمات الأسلوبية : يضاف الى ما سبق عدد من السمات الأسلوبية ، يمكن إجمالها فيما يلي:

- **التكثيف :** فهو قادر على تكثيف عباراته ببساطة وعفوية، من خلال نمط سردي، وهذا مـا نلمسه في قصيدته (رسالة عبر بوابة مندلباوم) التي يسرد فيها لأمّه أخبـاراً تكثـف أبعـاد قضيته في أصغر حيز ممكن [١].

- **توظيف التراث الشعبي** ، وقد بدا هذا التوظيف واضحاً في عدة قصائد من أشعاره[٢] .

– **التكرار :** " يقوم التكرار في القصيدة الحديثة بوظيفة إيحائية بارزة، وتتعدد أشكاله وصـوره بتعدد الهدف الإيحائي الذي ينوطه الشاعر به " [٣].

وهو سمة أسلوبية واضحة في شعر توفيق زيّاد، فهو يكرر الألفاظ، ليؤكد بذلك المعـاني التي يرمي إليها . وهذا ما نلمسه في المقطع الشعري السابق حيث كرر كلمة (أتحـدى) خمـس مرات ليؤكد روح المقاومة والصمود والتحدي في وجه الاستعمار مهما فعل[٤] .

- **التسجيل :** فقد كان يسجل رؤاه السياسية وانتماءاته الحزبية، وفكره الاشتراكي عبر قصـائده المختلفة. وقد بدا هذا في غير قصيدة من قصائده مثل (شيوعيون)، و (إلى عمال موسـكو) و (كرسنايا برسنايا)، وغيرها. وهذا طبيعي يتماشى مع نهج مدرسته[٥] .

---

[١] انظر شعر الأرض المحتلة ، ص ٣٨٠ .

– وانظر القصيدة في ديوانه أشد على أيديكم ، ص ١٠٧ .

[٢] انظرها في الحديث عن جانب اللغة من هذه الدراسة ، ص ٩٢

[٣] انظر : د . علي عشري زايد ، عن بناء القصيدة العربية الحديثة ، مكتبة دار العروبة بالكويت، ١٩٨١م، ص ٦١.

[٤] انظر التكرار في شعره في المقاطع الشعرية الواردة في الحديث عن (الوطن والمدينة) في (البعد الوطني المحلي) من هذه الدراسة. وانظر أيضاً ما كتبه د . عبد الرحمن عباد في هذا المجال ، ص ٣٨٦، ٣٨٨-٣٩٠، ٤٩٥ من كتابه الحركة الأدبية .

[٥] انظر : فصول ، مجلد ١٥، عدد ٤، ص١٠٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- **النغم الصاخب :** وقد بدا هذا في قصائده الثورية - عموماً - وظهر بوضوح في قصيدتيه (وثبة الجسر)، و (من وراء القضبان)[١].

- **الروح القصصية :** تبرز في قصائد توفيق زيّاد روح قصصية نهجها في العديد من قصائده، مثل : (سرحان والماسورة)، و (خائف يا قمر) ، و (عمان في أيلول).

- **التنويع في أساليب التعبير :** لم يستخدم توفيق زيّاد أسلوباً معيناً من اساليب التعبير ،فهو يقرر مرة ، ويسرد بطريقة مباشرة ، كما في قصيدته (رسالة عبر بوابة منذلباوم) . ويحاور أخرى ، كما في قصيدته (حوارية) التي يدل عنوانها بحد ذاته على المحاورة، ويسائل ثالثة، كما في قصيدته (كيف)، حيث يقول:

أي أم أورثتكم

يا ترى -

نصف القنال ؟[٢]

وينهي رابعة ، كما في قصيدته (لا تقولوا لي) التي يقوم عنوانها نفسه على النهي :

لا تقولوا لي : انتصرنا

إن هذا النصر

شر من هزيمه .[٣]

وهكذا تنوعت طرائقه في التعبير بين التقرير والخطاب .

- **الوعظ والإرشاد والتبشير :** يتخذ أسلوب توفيق زيّاد أحياناً نمط الوعظ والإرشاد، فنراه في المقطوعة الثامنة (عن الحضرة النرجسية)من قصيدته (الندابة) ينتقد إدعاء التمام والكمال للذات :

---

[١] انظر في هذا المجال : ما كتبه د . عبد الرحمن يا غي ، ص ٣٦٥، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٧٠ . ،
- من كتابه شعر الأرض المحتلة.

[٢] كلمات مقاتلة ، ص ١٠.

[٣] المصدر نفسه ، ص ١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كبر النرجس فيه وجنون العظمه.

فهو " عراب الحقيقه "

و " أبو الناس "

و " رب الفاهمين "

و " الحكيم الفذ "

و " العارف أسرار الحياه "

و " المنجي من التهلكه "

و " نبي الفكر " في عصر الضياع

وهو من من فمه

يلتقط الناس الدرر[١].

ثم يأخذ في المقطوعة التاسعة (عن الأصل والظل) من القصيدة نفسها، بوعظ الناس، وإرشادهم، وتحذيرهم من الخطب العصماء وممن يصطادون في الماء العكر، ومن الأدعياء التافهين !! جاعلاً بذلك نفسه عراب الحقيقة ، وأبا الناس، ورب الفاهمين...! حيث يقول :

في الزمان الصعب ينمو الشك

فاحذروا يا أيها الناس

دكاكين المساحيق

وتسفيط الكلام

والصنانير التي

يُلقي بها في البحر

بعض الأدعياء التافهين

واحذروا يا أيها الناس

لهاث التائهين[٢] .

---

[١] أنا من هذي المدينة ، ص ١١١ .

[٢] المصدر نفسه ، ص ١١٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

توفيق زيّاد الناثر

توفيق زيّاد الناثر أديب يكتب القصة القصيرة والمقالة الأدبية، وناقد تناول بـــالنقد مجموعة من القضايا الأدبية اللصيقة بالأدب الفلسطيني. وتوفيق زيّاد الأديب يكتب التقرير أيضاً، ولكن تقاريره كانت تقارير سياسية. ولما كانت هذه الدراســـة معنيـــة بـــالجوانب الشعرية والأدبية؛ فإنني سأضرب الذكر صفحاً عن دراسة تقاريره، وســـأتناول بـــالدرس توفيق زيّاد قاصاً، وكاتب مقالة وناقداً.[١]

---

[١] انظر في مجال التقرير السياسي لتوفيق زياد ، كتاب الدكتور عبد الرحمن عباد ، الحركة الأدبية، ص ١١٥-١١٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

توفيق زيّاد القاص

نتاج توفيق زيّاد القصصي قليلٌ نسبياً إذا ما قورن بنتاجه الشعري، فقد كتب مجموعة قصصية واحدة أسماها (حال الدنيا) ضمت ثلاث عشرة قصة قصيرة.

ويلمح القارئ قصص المجموعة أنها توزعت على ثلاثة أبعاد، ضم كل منها عدداً من القصص. وهذه الأبعاد هي :

- **البعد الاجتماعي :** وهو البعد الذي تناول فيه قضايا اجتماعية محورها الأساس هو المجتمع معبراً عنه من حيث طبيعته الطبقية بطبقاته المختلفة مركزاً على الطبقة الفقيرة العاملة بهمومها في حياتها اليومية، ومن حيث التقاليد التي تحكم المجتمع وفقاً لبيئته الاجتماعية. وقد تمثل هذه في قصص : (حال الدنيا والشاهدان والمئذنة، والناموس، وعن الباشوات والبكوات والحمير).
- **البعد السياسي :** وتناول فيه قضايا سياسية عكست مواقفه المبدئية ورؤاه الثابتة الواضحة من السلطة وأعوانها وعملائها، والاستعمار، والقوى الرأسمالية الامبريالية. من خلال قصص : (كيف أصبح الحمار شيخاً للعسكر، وهكذا نحن، وأبو حنيك وعبد القهوة، والنحلة الملحدة).
- **البعد الفكري :** وهو البعد الذي رسّخ من خلاله مبادئ مدرسته الواقعيّة الجديدة ومواقفها ورؤاها الثابتة من القضايا المختلفة في الحياة، وقيماً إنسانية إيجابية سامية كانت خلاصة تجربته الحزبية والحياتية المعيشة. عبر قصص: (وجه البقرة الميتة، وحكاية عن الحياة والموت، وعبّاس الصياد وديك الحجل، ومحمود لا ينسحب، وأختي أجمل مني).

وهذه الأبعاد الثلاثة بقصصها على ترابط وثيق وتداخل قوي، إذ نجد القصة أحياناً قد توزعت – من خلال مضمونها- على غير بُعد، وسيتضح هذا عند تناول القصص تباعاً بالدرس والبحث. أضف إلى ذلك أنّ الأبعاد الثلاثة بما ينطوي تحت كل منها على صلةٍ وثيقةٍ بالجماهير والجماعة الهم الأول لتوفيق زيّاد الذي يوليه جلّ اهتمامه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البعد الاجتماعي

– **حال الدنيا :** تقوم القصة بأحداثها على شخصيتين رئيستين متباينتين أخلاقـــا وديناً: إمام جامع تقي ورع، وخيّاط يميل إلى الإلحاد.

ومفادها أنّ إمام الجامع دأب على تفصيل جبةٍ جديدة كل عيد عند الخيـــاط الـــذي دأب بدوره على مماطلة الإمام في موعد تسليمه الجبة. وفي المـــرة الأخـــيرة يســـتغرقه تفصيل الجبة ثلاثة أشهر حتى يسلمها للإمام قبل صلاة العيد بساعة. وعندها تنتهي القصة بحوارٍ قصير يدور بين الإمام والخياط، حيث يقول الأول: "سبحانه وتعالى ... خلق الدنيـا وما عليها في ستة أيام ... وأما أنت ثلاثة أشهر على جبة؟ " فينفجر الخياط ضاحكاً:

... انظر حالك في المرآة يا سيدنا" – قال في زهو، ثم أضـــاف فـــي اســـتخفاف ومرارة – "وانظر حال الدنيا"[١].

لقد عبر توفيق زيّاد في هذه القصة عن التفاوت الطبقي في المجتمعات[٢] وعـــن هموم الطبقة العاملة ومعاناتها ممثلة بالخياط ذي العائلة الكبيرة، هذه المعاناة التي كـــانت سبب غياب الوازع الديني لدى هؤلاء الحرفيين فراحوا يعترضون على الإرادة الإلهيـــة، حيث يقول: "وفي نفس البلده، كان يعيش خياط ذو عائلة كبيرة... ، وأنتم تعرفون ... أنّـه في كل ابن حرفة شيءٌ من إبليس يجعله يحشر أنفه في شؤون الدنيا والدين، ويعـــترض على الإرادة الإلهية، التي رفعت الناس بعضهم فوق بعض طبقات"[٣].

ويؤكد هذا تعبير الخياط في نهاية القصة عن الفروق الطبقية في الدنيا حين قـــال للإمام: انظر حالك وانظر حال الدنيا.

---

[١] انظر : توفيق زياد – حال الدنيا، ط٢ ، مطبعة أبو رحمون، عكا، ١٩٩٤م، ص ١٤ .

[٢] انظر : سميّة الجندي، توفيق زياد وحال الدنيا، الموقف الأدبي، مجلد ٢٤ ، عدد ٢٨٢ ،دمشق، ١٩٩٤م، ص ١١٨ .

[٣] انظر : حال الدنيا، ص ٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- **الشاهدان والمئذنة :** تقوم أحداث القصة على شخصيتين رئيستين متباينتين أخلاقاً وتفكيراً هما: شيخٌ خبيثٌ كاذبٌ شديد النفاق، وكاتبٌ متوقد الذكاء يعملان ضمن حاشية الجزّار. يدعي الشيخ أنه على صلة بجبريل – عليه السلام- ويقص الأكاذيب بناء على ادعائه، ولا يعجبه أن الجزّار يثق بكاتبه كثيراً، فيحاول الإيقاع به، فينقلب السحر على الساحر، ويقع الشيخ في المصيدة التي نصبها للكاتب، فيخرجه الكاتب منها شرط أن يكف عن أكاذيبه ومحاولات الإيقاع به.

يحاربُ توفيق زيّاد عبر القصة قضيةً مهمة نعايشها في المجتمعات جميعها في كل زمان ومكان، وهي ظاهرة أولئك الأفّاقين الذين يتخذون الدين ستاراً يبيحون لأنفسهم من خلاله ما يحرّمونه على الآخرين، ولا يتورّعون عن الكذب والافتراء وصنع المكائد والدسائس للآخرين واتهامهم باطلاً في سبيل الارتقاء درجة أعلى لدى أهل الحكم والسلطة.

كما يعرض من خلالها مبدأ من مبادئ مدرسته يقوم على الوعي متمثلاً في انتصار العقل والذكاء على الجهل والأوهام والخرافات.[1] ومن هنا يظهر عبر هذه القصة بوضوح امتزاج البعدين الاجتماعي، والفكري معاً.

- **الناموس :** تحكي القصة عزم لصٍ محترف في سرقة الخيل يدعى (السلوقي) على سرقة فرس أصيلة من صاحبها تدعى (أم الريح)، ويبني اللص خطته على مثل شهير يقول "رفيق الخيال خيال" فيترقب صاحب أم الريح حتى يقطع عليه الطريق يوماً، وحين يأتي دوره في ركوب الفرس يهم بسرقتها، فيناديه صاحبها بعد ابتعاده بها بلقبه (السلوقي) مبيناً له أنه يعرفه، وإنما أعطاه الفرس ليصون شهامته ونواميس الناس، فيعيدها إليه السلوقي أيضاً صيانة للناموس نفسه، ولكنه يتوعده بسرقتها ثانية ولكن ليس بهذه الطريقة التي تخرق الناموس.

يتناول توفيق زيّاد هنا العادات والتقاليد والأعراف التي تحكم المجتمع وتنتظم حياته، فتجعله قوياً راسخاً تماماً كأنها قوانين يجب تطبيقها. ويتخذ من مجتمع البادية نموذجاً حيث يقول : "في البادية، تسود قوانين غير مكتوبة، وهي مقاييس للشهامة والكرم

---

[1] انظر : الموقف الأدبي ، مجلد ٢٤ ، عدد ٢٨٢ ، ص ١١٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والنجدة وعزة النفس، وغير ذلك من الأمور التي تنظم موضوعياً حياة ذلك المجتمع وتحميه من أن يأكل الناس بعضهم بعضاً " [١]

ويبين أن "هذه القوانين تتلخص في أمثال تجري على كل لسان، وتنتقل إلى الإنسان مع حليب أمه، ولا يستطيع أحدٌ أن يخالفها دون أن يجلب العار على نفسه وعلى أهله"[٢].

وهو بهذا إنما يرسّخ حقيقةَ مفادها أنّ مجتمعاً بلا قوانين وعادات وتقاليد مجتمع واهن هزيلٌ ضعيفٌ يسهل تفكيكه. وهنا يتبدى البعدان الاجتماعي والفكري في تمازج جميل وقوي.

وفي إقامته لبّ القصة وجوهرها على المثل الشعبي (رفيق الخيال خيّال) إنما هو "يستنطق الموروث الشعبي ويتغنى بما ينطوي عليه هذا الموروث من قيم مشرقة أصيلة"[٣].

ويشير توفيق زيّاد بطريقة غير مباشرة إلى وجود الطبقية حتى داخل البيئة الاجتماعية الواحدة، وهذا أمرٌ جديدٌ له السبق في الإشارة إليه. وقد تجلى هذا حين جعل (السلوقي) صعلوكاً لا يملك شيئاً، وبين أنه لم يكن يسرق لذاته قط، وإنما ليعيل من كان يجمعهم حوله من فقراء وصعاليك آخرين أمثاله. وفي هذا إشارةٌ خفية إلى النضال ضد الفروق الطبقية حتى في مجتمع البادية! وهذا ما عبّر عنه بقوله: "والسلوقي هذا كان صعلوكاً .. لا فوقه ولا تحته. ومع جرأته النادرة، كان شهماً وصاحب نخوة، ذا يدٍ لا يقع فيها شيء ما حتى يصرفه على الفقراء والصعاليك. يظل يجمعهم حوله ويطعمهم ويسقيهم حتى ينفد ما عنده فيبدأ يعد لعملية جديدة"[٤] وهذا القول بحد ذاته يدل على الوعي لدى السلوقي بدليل أنه كان يتبوّأ مركز القيادة في طبقة الصعاليك !

- **عن الباشوات والبكوات والحمير :** تتلخص أحداث القصة في رغبة السلطان في معرفة عدد الباشوات والبكوات في البلاد، وحين وجد أن لا أحد يعرف، ولم يستطع الاستدلال على العدد من القيود، اهتدى إلى دعوة الباشوات على ظهور البغال

---

[١] حال الدنيا ، ص ٢٧ .

[٢] المصدر نفسه ، ص ٢٧ .

[٣] الموقف الأدبي ، مجلد ٢٤ ، عدد ٢٨٢ ، ص ١٢٠

[٤] حال الدنيا، ص ٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والبكوات على ظهور الحمير في صفوف يتكون كلّ منها من خمسين للحضور إلى عاصمة السلطنة في يوم محدد، وهكذا يسهل عدهم. وفي النهاية يفاجأ بأن عدد البكوات في البلاد كان أكبر بكثير من عدد الحمير !! [١].

يقدم توفيق في هذه القصة نموذجاً للنقد الساخر اللاذع من طبقة الإقطاع المتمسكة بالألقاب في المجتمع الإقطاعي[٢] وقد بدت السخرية واضحة أولاً في دعوة الباشوات على ظهور البغال والبكوات على ظهور الحمير، حيث يقول على لسان السلطان: "تأمر الباشوات أن يأتوا على ظهور البغال والبكوات على ظهور الحمير"[٣].

ثم تنمو السخرية شيئاً فشيئاً حين يجعل الباشوات بغالاً والبكوات حميراً بصورة خفية غير مباشرة: "... وبدأ موكب الباشوات، صفاً من البغال وراء صف ... ثم بدأ موكب البكوات: صفاً من الحمير وراء صف"[٤]

وتبلغ السخرية الناقدة ذروتها حين يجعل البكوات – في نهاية القصة- أكثر عدداً من الحمير: "هؤلاء أيضاً بكوات يا مولانا . ولكننا لم نجد في البلاد جميراً على عددهم.."[٥]

وفي هذا كله يظهر التوظيف الموفق للرمز الساخر في القصة القصيرة عند توفيق زيّاد.

---

(١) انظر القصة في جريدة الفكر الجديد ، عدد ٦٣ ، ١٩٧٣/٩/٢ ، إضافة إلى مجموعة حال الدنيا.

(٢) انظر : الموقف الأدبي، مجلد ٢٤ ، عدد ٢٨٢ ، ص ١٢١ .

(٣) حال الدنيا، ص ١٣٢ .

(٤) انظر المصدر نفسه ، ص ١٣٢، ١٣٣ .

(٥) المصدر نفسه، ص ١٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البعد السياسي

- كيف أصبح الحمار شيخاً للعسكر : حكاية حمار قرر أن يهجر البلد الذي يعيش فيه مع دجاجة وبقرة، وحين وصل الثلاثة إلى النقطة العسكرية وقابلوا الضابط المسؤول سمح لهم بالهجرة لإعجابه الشديد بشخصية الحمار الطموح!

لجأت الدجاجة والبقرة إلى مزرعة آمنة، أما الحمار فانخرط في صفوف الجيش، وراح يحقق المجد تلو المجد إلى أن انتهى به الأمر شيخاً للعسكر نظراً لإنجازاته التي حققها بعد أن برع في قتل الأعداء لدرجة أنه كتب للدجاجة والبقرة إحدى رسائله بدم أسير من الأعداء !!

مرة أخرى يبدو توفيق زيّاد موفقاً في توظيف الرمز بنجاح، فهو يقدم لنا من خلال هذه القصة نقداً لاذعاً للسلطات العسكرية المتنفذة في فلسطين[١] ليعلن بذلك موقفه الواضح والصريح من السلطة عامة وهو كرهها والسخرية منها.

وفي كتابة الحمار رسالته بدم الأسير إنّما يبين أن السلطة ترتقي على الحروب والقتل وسفك الدماء، وفي هذا دعوة غير مباشرة إلى نبذ الحروب، لآثارها المؤلمة، هي ذاتها دعوته المعلنة الصريحة في قصائده الشعرية، كما لاحظنا سابقاً.

"والجدير بالاهتمام أنّ توفيق زيّاد يعتمد في هذه القصة على تقنية تطوير الطرفة الشعبية، وتوظيفها توظيفاً يؤدي غرضاً فكرياً"[٢]. فقد بدأ القصة على نمط القصص الشعبي الحكائي حين قال :

"لم يكن ذلك بالمنظر العادي ... : دجاجة وبقرة وحمار- يحمل كل منهم بقجة..."[٣] ثم راح يكشف عن المنحى الفكري للقصة شيئاً فشيئاً حين قال: "...'يقتربون من النقطة العسكرية التي على الحدود، ويسألون عن الضابط المسؤول"[٤]

٥٤١٢٩٩

---

[١] انظر : الموقف الأدبي، مجلد ٢٤، عدد ٢٨٢ ، ص ١٢١ .

[٢] المرجع نفسه، ص ١٢١ .

[٣] انظر : حال الدنيا، ص ٥٧ .

[٤] المصدر نفسه، ص ٥٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وينتقل توفيق زيّاد من السلطة إلى شقها الثاني، ونصفها المكمل لها الاستعمار، فيعالج حقيقتين أساسيتين تتعلقان به من خلال قصتيه: هكذا نحن، وأبو حنيك وعبد القهوة.

- **هكذا نحن :** تدور أحداثها أيام الاستعمار البريطاني - المسمى انتدابا- لفلسطين بعد خروج الجيش التركي منها وحلول الجيش الإنجليزي مكانه. وبطل هذه الأحداث هو بشير الحيفاوي (أبو الميناء) الذي يستدعيه الحاكم العسكري الإنجليزي مع كبار البلد ووجهائها لمعرفة آرائهم في الحكم البريطاني، فيبدأ الجميع بالإطراء والمديح إلى أن يصل الدور إلى بشير الحيفاوي الذي يقص على الحاكم قصة يخلص منها إلى أنهم في العهد البريطاني ليسوا بأفضل حالاً منهم في العهد التركي.

يقرر توفيق زيّاد حقيقة مهمة من حقائق الاستعمار وهي أنه واحد وأهدافه واحدة مهما اختلفت صورته وأياً كان المستعمر. وهذا ما أكده في قوله: "وكانت الرطانة الإنجليزية، قد حلّت مكان الرطانة التركية. وأما الأسياد الجدد، ...، فقد كانوا نسخة جديدة لماعة من الأسياد القدماء"[١] وهو بهذا يعني أن صورة الاستعمار قد تختلف باختلاف المستعمر لكنه يبقى استعماراً.

ويؤكد هذه الحقيقة في نهاية القصة على لسان (أبو الميناء) حيث يقول للحاكم العسكري: "- وهكذا نحن يا سيدي.. في العهد الماضي مركوبون وفي عهدكم مركوبون.."[٢]

ونراه هنا من خلال القول السابق يستغل شخصية بشير (أبو الميناء) للتعبير عن وعيه العميق وبعد النظر لديه استغلالاً يمتزج فيه البعد السياسي بالبعد الفكري، خلافاً لكبار البلد ووجهائها وأعيانها الذين راحوا يمتدحون سياسة الإنجليز حين "اتصل حبل الحديث. كلما سكت عين تكلم عين، يمدحون ويطرون"[٣] مصوراً بذلك ضعفهم وتخاذلهم في مواجهة الأخطار المحدقة بالوطن.[٤]

---

[١] انظر : حال الدنيا، ص ١٠٦ .

[٢] المصدر نفسه، ص ١١١ .

[٣] المصدر نفسه، ص ١٠٩

[٤] انظر : الموقف الأدبي، مجلد ٢٤ ، عدد ٢٨٢ ، ص ١٢٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتناول توفيق زيّاد الاستعمار ثانيةً ولكن بقالب وإطار جديدين، ليؤكد من خلالهما حقيقةً أخرى من حقائق الاستعمار، عبر قصة جديدة هي :

- **أبو حنيك وعبد القهوة :** التي تحكي قصة الإنجليزي (كلوب أبو حنيك) الذي أصبح قائداً للجيش الأردني، بعد أن تنكر الإنجليز لوعودهم التي قطعوها للعرب، بعد ثورتهم ضد الدولة العثمانية. حيث دأب أبو حنيك على الاجتماع بالقبائل الأردنية بين حين وآخر، وراح يلبس اللباس العربي، ويتحدث العربية متقناً لهجاتها، ويجالس العرب في بيوت الشعر. وفي أحد لقاءاته تصادف مع الشاب اليافع (عبد القهوة) الذي كان يعد القهوة ويقدمها للضيوف. فرابه أمره، ورغب في معرفة ما يجول في ذهنه، فسأل الجالسين عن أمنياتهم ليصل إلى عبد القهوة الذي أجابه بأنه يتمنى سلاحاً ماحقاً للأجانب! فما كان من (أبو حنيك) إلا أن قتله.

إن توفيق زيّاد إنما يقرر عبر هذه القصة حقيقةً أخرى من حقائق الاستعمار من خلال شخصية كلوب (أبو حنيك)، وهي أنّه يبقى استعماراً حتى لو تقنع بقناع آخر، وظهر في شكل جديد. ويؤكد هذا قوله في كلوب: "... وراح يدرس اللغة العامية حتى أتقنها وأتقن جميع لهجاتها. وكان يلبس اللباس العربي التقليدي... باختصار كان يتظاهر وكأنه ابن عرب حقيقي في لباسه وسلوكه وحديثه"[١].

فكلوب وهو يتظاهر على هذه الصورة، إنما هو مستعمرٌ مقنعٌ مهما تغير شكله الخارجي.

ويمتزج البعد السياسي بالبعد الفكري عبر شخصية (عبد القهوة) الواعي على الجاسوسية والاستعمار أكثر من شيوخ القبائل ورؤساء العشائر الذين استطاع كلوب خداعهم. ويتجلى وعيه في أمنيته التي كانت وطنية ذات أبعاد قومية أممية، تحمل في طياتها روح الثورة: "-حسناً ... أمنية حياتي هي سلاحٌ خارقٌ للأجانب ماحق.."[٢].

فهي الثورة على الاستعمار بكل أشكاله وأينما وجد ، إنها الوعي الفكري البعيد الممتد.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن توفيق زيّاد عبر القصتين الأخيرتين إنما يؤرّخ لأحداث واقعيةٍ حدثت زمن الإنجليز تأريخاً صادقاً بأسلوبٍ أدبيّ .

---

[١] انظر : حال الدنيا، ص ١٢١ .

[٢] المصدر نفسه ، ص ١٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- **النحلة الملحدة :** تنفرد هذه القصة بتقنية خاصة لا نجدها في سائر قصص المجموعة، إذ تقوم على القصّ السياسيّ على ألسنة الحشرات، في قالب ساخر طريف، وباستخدام الرمز الشفاف.[١] وحيث أنّ القصة من بدايتها وحتى نهايتها تقوم على استخدام الرمز فلا مجال لتلخيص أحداثها. إنما سأعمد إلى بيان فحواها ومضمونها.

ينبه توفيق زيّاد عبر هذه القصة إلى خطورة التهديدات المحدقة بالشعوب العربية، وإلى دور أمريكا دولة الرأسمالية والاستعمار، ورغبتها في فرض مخططاتها على منطقة الشرق الأوسط.[٢] ويتحدث عن رغبتها الدائمة في السيطرة على دول العالم جميعها خصوصاً الدول الصغيرة منها. وقد عبّر عنها بـ (سام الأخير) سلطان سلاطين زمانه، ورمز لها بالزنبور الأكبر ذي الحجم الأسطوري. وأشار إلى نهبها وسرقتها نفط العرب، وسفكها دماء الأبرياء من أبناء الدول المستضعفة التي ترفض التبعية لها حين جعل يد سام الأخير "تمسك بزجاجة "بترو-دم" شراب الزنابير العالمي"[٣].

أما (النحلة الملحدة) فهي أية دولة ترفض تبعية أمريكا، وتقول: "لا" في وجهها، وما ينبني على هذا الرفض من إنذار أمريكا لها، وتدخلها في شؤونها، ثم محاربتها وقتل أبنائها ونهب مصادرها وإنتاجها بعد إعلانها (نحلة ملحدة)، وعليه تجب إعادتها إلى الإيمان بأن أمريكا هي القوة العظمى في العالم من خلال الحرب والقتل وسفك الدماء.

ويشير توفيق زيّاد عبر ثنائية (الإلحاد والإيمان) الطريفة إلى جرائم أمريكا السابقة في فيتنام والخليج العربي وساحل الكاريبي. وينطلق بعدها إلى خشية أمريكا الاتحاد السوفياتي الدولة الاشتراكية الأولى في العالم -آنذاك- والعدو اللدود لدولة الرأسمالية أمريكا، الوحيد القادر على مواجهتها والتصدي لها، لذا فإنّها تخشى تحالف الدول الضعيفة مع "الدببة الحمر"[٤].

كما يشير أيضاً إلى تأميم مصر قناة السويس، ومحاربة أمريكا ذلك الفعل الرهيب! بالتعاون مع زنبور كبير آخر هو بريطانيا، وتنفيذ المهمة من قبل الزنبور الصغير

---

(١) انظر : الموقف الأدبي ، مجلد ٢٤ ، عدد ٢٨٢ ، ص ١٢٣ .

(٢) انظر : المرجع نفسه ،ص ١٢٢ .

(٣) حال الدنيا ، ص ٧٩ .

(٤) انظر التعبير عن الاتحاد السوفياتي بالدببة الحمر ، ص ٨٥ من مجموعة حال الدنيا.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(إسرائيل)، من خلال العدوان الثلاثي على مصر! والحقيقة أنّ العدوان الثلاثي على مصر نفذ من قبل فرنسا، وبريطانيا وإسرائيل، ولم تكن لأمريكا مشاركةٌ فيه!

ويستخدم عبر القصة تقنيات فنية جديدة هي "أقراص فقدان الذاكرة..." تأخذ حبة منه فتفقد كل تاريخك الماضي، وتتقطع كل صلة للماضي بالمستقبل. وانقطاع هذه الصلة معناه الحرفي.. اختلال التوازن والشعور، ومواجهة المستقبل بلا رأس"[١] ليعيد من خلالها قراءة التاريخ مبيناً أن إسرائيل وأمريكا لا تقرآن التاريخ جيداً لأنهما ابتليتا بالنسيان، هذا النسيان الذي دفع إسرائيل لشن حربها عام ١٩٦٧م في الخامس من حزيران. ليؤكد أنّ نهاية إسرائيل باتت قريبة – من وجهة نظره – رغم انتصارها في تلك الحرب، لأنها مبتلاة بالنسيان.

وهكذا فقد حاول توفيق زيّاد إعادة قراءة التاريخ عبر (النحلة الملحدة) مستخدماً وقائع وأحداثا تاريخية حدثت فعلا .

---

[١] حال الدنيا ، ص ٨٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البعد الفكري

- **وجه البقرة الميتة :** بطل القصة هو (عبدالله أبو سعدة) رجلٌ فقيرٌ تقوم حياته وحياة عائلته على بقرة عجفاء وحمار مهترئ. وفي أحد الأيام تمرض البقرة التي اشتراها بعد جهدٍ جهيد وعناء طويل، فيتضرع إلى الله أن يشفيها ويميت الحمار بدلا منها، ولكن البقرة تموت في النهاية رغم تضرعه وابتهالاته، فيخرج عن طوره، ويتوقف عن صومه وصلاته.

يبدأ توفيق زيّاد القصة ببعدها الاجتماعي ، حين يعبر عن معاناة الطبقة الفقيرة في المجتمع، ممثلةً بعائلة (أبو سعدة) التي تعتمد في حياتها على حمار مهترئ، وبقرة عجفاء تموت في نهاية القصة. ويشكل موتها مدخلاً إلى البعد الفكري، حيث ينطلق منه ليرسخ مبدأ من مبادئ مدرسته، وإحدى رؤاها ممثلة في نظرتها إلى الحياة على أنها لا تتوقف عند موت أحد، ولذلك فقد جعل موت الحيوان (البقرة) كموت الإنسان: "عجيب.. إن للبقر الميت وجوهاً أشبه بوجوه البشر الموتى"[١] فالموت واحدٌ للإنسان والحيوان، ولكنه لا يعني توقف الحياة، بل على النقيض تماماً إنه الحافز على الاستمرار فيها.

وتتجلى ديناميكية الحياة في قوله : "ولكن للحياة طبيعتها. ولا يمكن البقاء أمام بقرة ميتة وقتاً طويلاً... كان لا بد من حملها وإخراجها من البيت"[٢].

ففي قوله: (للحياة طبيعتها) إنما يعبر عن ديناميكية الحياة، وحركتها الدائمة، واستمراريتها دون توقف. وفي حمل البقرة وإخراجها من البيت إشارة إلى وجوب الالتفات إلى الأيام القادمة في الحياة والعمل لأجلها.

وفي تصوير توفيق زيّاد مدى المعاناة التي عاشها عبدالله أبو سعدة بعد موت بقرته لدرجة فقد معها صوابه وتوقف عن صومه وصلاته إشارة خفية إلى (النسبية) في الأمور في كل شيء حتى في الإيمان! في ظل الظروف الصعبة التي قد يعيشها الإنسان فلا شيء مطلق. وهو بذلك يرسخ مبدأ آخر من مبادئ مدرسته. وهكذا نجد توفيق زيّاد يسخر

---

[١] حال الدنيا، ص ٤٣ .

[٢] المصدر نفسه ، ص ٤٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قصصه ليرسّخ من خلالها ما استطاعه من القيم والمبادئ، ولا يقتصر على قيمة واحدة أو مبدأ واحد.

وعلى أية حال فإنّ (وجه البقرة الميتة) صرخةٌ يطلقها توفيق زيّاد "يتواشج فيها الهم الإنساني مع الهم الاجتماعي في عملية نقدٍ جاد غير مباشر، موضوعها الوضع المزري الذي تعيش فيه شريحةٌ من طبقة الفقراء"[١] من أبناء شعبه.

[١] الموقف الأدبي ، مجلد ٢٤ ، عدد ٢٨٢ ، ص ١٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- **حكاية عن الحياة والموت** : تدور أحداث القصة حول عامل في مصنع للصابون، يخرج ذاهباً إلى عمله في الصباح الباكر، وفجأة يُساق إلى المشنقة، لأنه كان أول من رآه حاكم المدينة في يوم شؤمه ذكرى اليوم الذي قتل فيه حبيبته تحت وطأة الشك، ثم اكتشف أنها بريئة. وفي أثناء سيره مقيداً إلى المشنقة تراه زوجته التي لا تأبه بمصيره وموته، ويكون همها أن تأخذ منه قرشاً إيجار الحمام لأنه لم يترك لها ذلك عند مغادرته المنزل، وفي أثناء وقوفه على المشنقة يلمح فتاة من إحدى النوافذ المقابلة تبدو نصف عارية؛ فيحس بنشوة عارمة تنسيه الموت، فيبتسم، وعندما يصر الحاكم على معرفة سبب ابتسامه، فيقول: "لقد ضحكت يا مولاي لأنني فكرت فيك وفي امرأتي ناقصة العقل وفي نفسي فوجدت أنك أسخف الثلاثة ... أما أنت يا مولاي، فقد نهضت قبل الفجر تبحث عن الموت لغيرك ... وأما زوجتي ... وأنتم تسوقونني إلى الشنق لم يهمها إلا أنني نسيت أن أترك لها هذا الصباح إيجار الحمام. وأما أنا فقد وقفت وحبل المشنقة حول عنقي، انتظرت الموت. وبينما أنا أتملى من الطبيعة أودّعها ... وقع بصري على بدن فتاة، نهضت من فراشها للتو . فنسيت وقفتي أمام الموت ورحت أفكر في الحياة"[١].

وعندها يُطلق الحاكم سراحه ويحول يوم شؤمه عيداً عاماً للمدينة.

مرة أخرى يتناول توفيق زيّاد الحياة ولكن من خلال صرخة يطلقها معبراً بها عن حب الحياة بجمالياتها، وعن تغلبها على الموت إذا ما وقف الإثنان معاً في المواجهة. ويتخطّى بهذه الصرخة حواجز الزمان، وبقاع المكان، لتمتد عبر فضاءات الأزل والكون قيمة إنسانية رائعة.

وقد تبدى هذا الحب في قول العامل- وهو مسوقٌ مع الجنود يتفرس في جمال الطبيعة قبل شروق الشمس- "كم هي جميلة الحياة"[٢].

أما قول زوجته "أعطني إيجار الحمام ... لا يهمني... أعطني إيجار الحمام.."[٣] ففيه دلالة واضحة على ديناميكية الحياة واستمراريتها وعدم توقفها عند موت شخص ما.

---

[١] انظر: حال الدنيا، ص ٩٧، ٩٨ .

[٢] المصدر نفسه ،ص ٩٥ .

[٣] انظر : المصدر نفسه ، ص ٩٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونجد في إخلاء سبيل عامل الصابون بعد أن وقف على المشنقة دليلاً واضحاً على تغلب الحياة على الموت دائماً، ليبين لنا أنّ وراء الموت المظلم الحزين حياةً سعيدة مشرقةً مليئةً بالفرح، وهو بذلك إنما يعبر بثنائية (الموت والحياة) عن الواقع القائم ونقيضه الخفي الأجمل.

وفي بداية القصة تبدّى العمل لأجل الحياة، في خروج العامل من بيته مبكرا "وهو يتمتم "يا فتاح.. يا عليم.. يا زرق الأولاد" [١] وفي نهايتها تعبيرٌ عن استمرار الحياة عبر صورة بسيطة جميلة، عندما راح ذلك العامل "يحث الخطى نحو مصنع الصابون الذي يشتغل فيه، قبل أن يضيع عليه يوم عمل"[٢].

---

[١] انظر : حال الدنيا ، ص ٩١ .

[٢] المصدر نفسه ، ص ٩٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- **عباس الصياد وديك الحجل :** تحكي القصة عن صياد ماهر اشتهر بدقة التصويب، والقدرة على إصابة الهدف، هو البطل عباس الذي يكتشف يوماً أن جاره الذي يقل عنه مهارة وقدرة يصطاد كمية من الحجل تفوق ما يصطاده هو بكثير. وحين يسأله عن السبب، يصحبه معه جاره إلى الصيد ويخرج أمامه مخلاةً فيها حجلٌ سمين ما إن يبدأ بإطلاق صيحاته حتى تجتمع حوله طيور الحجل، فيشرع الصياد باصطيادها في شبكة، وعندها يرى عباس الطريقة غير شريفة، فالغاية لا تبرر الوسيلة، ويعد الحجل خائناً لأبناء جنسه، فيقتله، وتبقى على وجه الحجل ابتسامة بلهاء !

يتناول توفيق زيّاد قضية الخونة الذين يتعاونون مع أعدائهم ضد أهلهم في سبيل الحفاظ على حياتهم، أولئك الذين يسمنون على هزال أهلهم، ويرتقون على جماجم أبناء وطنهم، ولا يدركون أن ارتقاءهم هذا هو السقوط بعينه؛ لأن التعاون مع الأعداء والخيانة يعنيان ربط الطوق حول العنق بيد الخائن نفسه.

إنه يؤكد وجوب محاربة الخونة الجواسيس العملاء حتى تتخلص الأوطان من شرهم وجشعهم. ويعبر عن ذلك كله بطريقة رمزية، فصورة الخونة متمثلة بطائر سمين لا يقوى على الطيران !! إنما تؤكد أنّ ارتقاءهم هو السقوط بعينه، كما تؤكد جبنهم وغباءهم لأنهم لا يعون عاقبة الخيانة، وتؤكد افتقادهم الشعور والإحساس، وقد تمثل هذا في الابتسامة البلهاء التي ارتسمت غير مرة على وجه الحجل السمين الذي مات بلا ألم "ولم يبد على ديك الحجل السمين حقاً، والجميل حقاً، أيُّ ألم وهو يسقط مضرجاً بدمه، وكان يموت بهدوء وهو ما زال يبتسم نفس ابتسامة البلهاء.."[١]

وصورة المخلصين للوطن الذين يرفضون الخيانة، ويلاحقون الخونة أينما كانوا ويقتلونهم ممثلة بعباس الصياد الماهر إنما تؤكد إخلاص الطبقة العاملة للوطن ودورها المحوري في حمايته والدفاع عنه.

وهكذا فقد رسّخ توفيق زيّاد عبر هذه القصة حقيقة واقعة هي أنّ الخيانة واحدة ، وكذلك الإخلاص واحدٌ، في أي بقعة من بقاع العالم، جامعاً بذلك النقيضين معاً.

---

[١] حال الدنيا، ص ٧٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

محمود لا ينسحب : تحكي القصة شجاعة شاب هو البطل محمود الذي يعمل مع والده في الحدادة مذ كان فتياً، ولكنه يحس بشيء ينقصه، إلى أن يرى ذات يوم طابور جنود يعبر الشارع، فيجد ضالته ويتطوع في الجيش، فيكون جندياً متميزاً بشجاعته، وفي إحدى المعارك يقاوم الأعداء بضراوة، ويصاب بجروح كثيرة، فتقرر القيادة ترقيته ضابطاً جزاء شجاعته، فيستدعيه قائد الفرقة، ويمتحنه بسؤال:

"إذا كنت تحمي مع عدد من رجالك جسراً من الجسور، وهاجمك العدو فماذا تفعل؟!"[١] فيجيب محمود: "أقاوم يا حضرة العقيد"[٢].

ويكرر القائد السؤال عليه غير مرة بصور أخرى، ويجيب محمود الإجابة نفسها في كل مرة، فيغضب القائد ويقول: "أقاوم.. أقاوم.. هذا غير محتمل..! أنت ساقط... في هذه الحالة عليك أن تنسحب"[٣] وعندها تنتهي القصة بإجابة محمود: "ساقط..ساقط.. لكن محمود ما ينسحب"[٤].

يرسخ توفيق زيّاد عبر هذه القصة قيمة مهمة من قيم الكفاح والمقاومة، وهي أن المقاومة لا تنتهي عند حد معين، ولا تتوقف، ولا تتحول إلى انسحاب فهي مستمرة في وجه العدوان، ووجه الظلم والطغيان، وهذا ما تبدى بوضوح في إجابة محمود التي أصر عليها، وتمسك بها وكررها غير مرة. كما تبدى في إجابته في نهاية القصة التي شكلت الأساس المتين الذي قامت عليه القصة وهو المقاومة وعدم الانسحاب.

كما بدت هذه القيمة غير مرة في غير موضع من القصة منها: قول محمود: "... يجب أن يكون الجندي مستعداً أن يعطي وطنه كل شيء... قطرة دمه الأخيرة"[٥] وقوله: "الجندي يجب أن لا يدير ظهره للعدو، مهما كلف الأمر"[٦].

ويمتزج في هذه القصة البعد الفكري بالبعد الاجتماعي، حين يصف توفيق زيّاد محموداً بأنه "كان يحب الفلاحين البسطاء، بنفس الشدة التي يكره بها أفندية الأرض المتعجرفين"[٧] معبراً بهذا القول عن طبقة الإقطاع المتحكمة بالفلاحين الطبقة العاملة.

---

[١] حال الدنيا، ص ٥٥ .

[٢] المصدر نفسه، ص٥٥ .

[٣] انظر المصدر نفسه، ص ٥٦ .

[٤] المصدر نفسه، ص ٥٦ .

[٥] انظر المصدر نفسه، ص ٥٣ .

[٦] المصدر نفسه، ص ٥٣ .

[٧] المصدر نفسه، ص ٥٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما جعله محموداً واحداً من أبناء الطبقة العاملة إنما هو تأكيدٌ أنّ الثورة والكفاح والتضحيات إنما تقوم على أكتاف الطبقة العاملة.

ونرى توفيق زيّاد يؤكد أيضاً قيمة مهمة عن الكفاح والثورة والحرية، وهي أنها جميعاً واحدة في أي مكان في العالم. وقد جاء هذا في وصفه محموداً بقوله: "... وأي انتصار يحققه الكفاح من أجل الحرية في أي مكان في العالم كان يسقط في نفسه سقوط المطر على أرض عطشى."[١]

أختي أجمل مني : تحكي القصة حكاية فتاة جميلة، كانت تحلم بشاب يحبها، شاب شجاع يحملها ويهرب بها بعيداً جداً. وتعبر عن هذا الحلم بأغنية كانت تغنيها في مشوارها اليومي خارج القرية لتملأ جرتها من عين الماء. وفي أحد الأيام يعترض طريقها شاب وسيم، يطلب منها أن تجول معه الدنيا ليعيشا معاً كنحلتين على الزهور، وليجعل الدنيا جنة تحت قدميها. وعندها تعتقد الفتاة لوهلة أن حلمها تحقق، وفجأة تخطر لها فكرة تختبر من خلالها صدق الشاب، فتخبره أن لها أختاً أجمل منها ستأتي من الطريق نفسه الذي أتت منه هي، فيشرع الشاب بانتظارها، وتكمل هي دربها لتملأ جرتها، وعندما تعود يخبرها الشاب أن أختها لم تأت، فتخبره أن ليس لها أخت، وأنها خدعته لتتأكد من صدقه.

يرسخ توفيق زيّاد هنا مبدأ من مبادئ مدرسته وهو عدم الإيمان بالأحلام والأوهام. والتعامل مع الواقع القائم من أجل تغييره إلى نقيضه الأجمل، فالفتاة في البداية عاشت في عالم الأحلام، حين "كانت تغني بصوت خافت أغنيتها التي تتحدث عن الفارس الشجاع، الذي يهرب بحبيبته، في ليلة ما فيها قمر، إلى عالم الأحلام"[٢] ولكنها استطاعت بخدعة بسيطة أن تعود إلى الواقع، وتكتشف كذب ذلك الشاب الذي تركته يعيش في أوهامه، وسارت في طريقها.

مما سبق كله نجد أن توفيق زيّاد قد كرر مضامينه التي تناولها في شعره عبر مجموعته القصصية (حال الدنيا)، وربما يعزى السبب في ذلك إلى وجود هدف وضعه توفيق زيّاد نصب عينيه، تمثل في رغبته الملحة في مقاومة النظام السياسي بكل ما يندرج

---

[١] انظر : حال الدنيا، ص ٥٠ .

[٢] المصدر نفسه ، ص ١١٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تحته من استعمار وتسلط وكبت للحريات وإجهاض للكفاح والمقاومة، فراح يقاوم ذلك كله عبر اشعاره وقصصه متكئاً على مبادئ مدرسته ورؤاها. ولعل هذا يفسر كونه كاتباً سياسياً من طراز رفيع.[١]

المستوى الفني لقصصه وعلاقتها بالفلكلور : وعلى الصعيد الفني نجد أن قصص توفيق زيّاد لم ترق فنياً إلى مستوى القصة القصيرة بمفهومها الفني الحديث من حيث عناصر البناء والنسيج، فقد قامت الأحداث في معظمها على السرد والحوار المتناثر في غير موضع في غير قصة، وحملها توفيق زيّاد الحقائق -خصوصاً في البعد الفكري- مع أن الأجدر بها أن تكون "مستثناة بأي شكل من قوانين السرد والحقائق والتحليل والتوضيح"[٢] لتأخذ مفهوم القصة القصيرة.

ويلفت النظر أن الشخصية فيها لازمت وتيرة نمطية واحدة حددها المؤلف سلفاً، مع أن الشخصية، يجب أن تنمو وتتطور مع الأحداث تبعاً لنموها وتطورها، فاعلةً مؤثرة فيها حتى تصل معها إلى النهاية.[٣]

كما يلفت النظر أيضاً أن **الشخصية** في عدد من قصصه – إذا ما استثنينا القصص التي كانت شخصياتها رموزاً- لم تحمل اسماً ! إذا كان يعبر عن الشخصية من خلال متعلقاتها، كالمهنة مثلاً كما في قصص : (حال الدنيا) التي كانت شخصياتها شيخاً وخياطاً، و (الشاهدان والمئذنة) وشخصياتها شيخٌ وكاتب، و (حكاية عن الحياة والموت) وشخصيتها الرئيسة هي (عامل الصابون)، و (أبو حنيك وعبد القهوة) حيث عبر عن (عبد القهوة) وهو شخصية رئيسة أيضاً من خلال مهنته. كذلك عبر عن الشخصية من خلال متعلق آخر هو ما تملكه، كما في قصة (الناموس) حيث عبر عن البطل من خلال فرسه التي منحها اسماً هو (أم الريح). أو أن الشخصية لم تحمل اسماً إطلاقاً لا بصورة مباشرة، ولا من خلال متعلقاتها كما في قصته (أختي أجمل مني) التي لم يحمل كل من بطلتها الفتاة الجميلة ولا الشاب الوسيم اسماً.

---

[١] انظر في هذا المجال ما كتبه الدكتور عبدالرحمن عباد في (الحركة الأدبية) ، ص ٤٩٥ .

[٢] سوزان لوهافر – الاعتراف بالقصة القصيرة، ترجمة محمد نجيب لفته، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٠م، ص ١٩-٢١.

[٣] رشاد رشدي، فن القصة القصيرة، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٣٠.
يوسف الشاروني- القصة القصيرة نظرياً وتطبيقياً، دار الهلال، القاهرة، ١٩٧٤م، ص ٦٨-٧٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما **الحبكة** فقد كانت تتماهى ضمن الأحداث التي كثيراً ما يفاجأ القارئ بنهايتها، وقد بدا هذا واضحاً في قصة (النحلة الملحدة).

كما افتقر عددٌ من قصصه **وحدة التأثير**، وقد بدا هذا بوضوح في (النحلة الملحدة)، كما بدا في قصص (أختي أجمل مني)، و (كيف أصبح الحمار شيخاً للعسكر)، و (عن الباشوات والباكوات والحمير).

أضف إلى ذلك افتقار قصصه عنصر **التشويق**، حيث كان القارئ قادراً على التنبؤ بنهاية القصة، والأحداث ما تزال في منتصفها، وقد بدا هذا بوضوح في (أختي أجمل مني)، و (كيف أصبح الحمار شيخاً للعسكر).

ولكن على أية حال يسجل لتوفيق زيّاد امتداده بعنصري **الزمان والمكان**، وعدم قصرهما على زمان أو مكان بعينه، حين كان المضمون ممكن الحدوث في أي زمان أو مكان كما في (حال الدنيا)، و (حكاية عن الحياة والموت). وتحديدهما حين كان المضمون قائماً على أحداث وقعت فعلاً كما في (أبو حنيك وعبد القهوة)، و (هكذا نحن).

ولعل مرد هذا الضعف في المستوى الفني لقصصه إلى أنّه كان يكتب انطلاقاً من مبدأ (الفن للجماعة)، فقد كان يتخير وينتقي كل ما هو على صلة وثيقة بالجماعة والجماهير موضوعات لقصصه؛ ولذلك جاءت قصصه –عموماً– أقرب إلى الحكاية الشعبية منها إلى القصة– باستثناء قصة النحلة الملحدة– ولعل هذا ما جعل عدداً من الدارسين يعدون مجموعة (حال الدنيا) مجموعة فلكلورية، وعلى رأس هؤلاء الدكتور عبد الرحمن عباد.[١] فهل كانت قصص المجموعة قصصاً فلكلورية؟

الفلكلور وفق أحدث تعريفاته – بالنظر إلى مادته: هو المأثورات الروحية الشعبية، خصوصاً التراث الشفوي ، والعلم الذي يدرس هذه المأثورات غير المدونة للشعب، كما تبدو في ا لقصص الشعبي، والعادات والمعتقدات والسحر والطقوس، لينشئ التاريخ الفكري للإنسان من جديد، كما تصوره أصوات العامة الأقل ارتفاعاً وجهراً، لا كما تمثله كتابات الشعراء والمفكرين المرموقة.[٢] وهذا ينطبق على قصص : (حال الدنيا)، و (الشاهدان والمئذنة)، و (وجه البقرة الميتة)، و (محمود لا ينسحب)، و (أختي أجمل مني)،

---

[١] انظر رأيه في كتابه الحركة الأدبية، ص ٣١٢ .

[٢] انظر: فوزي العنتيل– الفلكلور ما هو ؟ دراسات في التراث الشعبي، ط٢، دار المسيرة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٤٠٧هـ–١٩٨٧م ص ٤٤ وانظر أيضاً : الكساندر هجرتي كراب –علم الفلكور ، ترجمة رشدي صالح، وزارة الثقافة، مؤسسة التأليف والنشر، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م، ص ١٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

و (هكذا نحن)، و (عن الباشوات و البكوات و الحمير)، حيث تناولت كلها قضايا قامت على عادات و معتقدات صدحت بها أصوات لعامة، بأسلوب ناقد ساخر أحياناً، جاد أحياناً أخرى، و اصف مصور ثالثة.

ولما كانت حكايات الحيوان جانباً من الفلكلور و جزءاً منه، تشرح و تفسر من حيث جوهرها، و ترمي إلى غاية أو شرح علة.[١] فإن قصة (كيف أصبح الحمار شيخاً للعسكر) تدخل الفلكلور من هذا الباب. وقد تضاف إليها قصة (النحلة الملحدة) رغم الضعف الواضح في مستواها الفني.

و الأمثال الشعبية بدورها جانب مهمّ من التراث الشعبي يكشف عن فلسفة المجتمع الأخلاقية و الاجتماعية. وهي كثيرة الدوران على الألسن دون أن تنسب لأفراد معينين، لأن ذاكرة الجماهير ذاكرة جمعية لا تحتفظ بتاريخها بصيغة المفرد.[٢] و الأدب الفلسطيني الشعبي بشكل خاص يتبدى في أحد جوانبه في أمثال هذا الشعب، وما يجري على السنة الرواة من هذه النصوص الموروثة، مما لم يعرف له قائل، ويدل على الضمير الجمعي للشعب.[٣] ومن هنا فإن قصة (أبو حنيك وعبد القهوة) التي تقوم على المثل الشعبي: (شهاب الدين أضرط من أخيه)[٤] أو (شهاب الدين أطقع من أخيه)- (ما أطقع من عمّار إلا عميرة)[٥] تلج الفلكلور من هذا المنطلق.

وتبعاً للمنطلق نفسه يمكن أن تضاف قصة (الناموس) التي استنطق فيها توفيق زيّاد الموروث الشعبي، حين اتكأ على المثل الشعبي القائل :

---

[١] انظر : علم الفلكلور ، ص ١١٤ .

[٢] انظر : يوسف حداد- المجتمع و التراث في فلسطين قرية البصة، ط١، مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٨٥م، ص ٢٠٦.

[٣] أنظر: شريف كناعنة- المأثورات الشعبية، ط١، مشورات جامعة القدس المفتوحة، المكتبة الوطنية، ١٩٩٦م، مقدمة المقرر، ص(أ).

[٤] انظر المثل في حال الدنيا، ص ١٢٠ .

[٥] انظر : لجنة الأبحاث الاجتماعية والتراث الشعبي الفلسطيني – دراسة في المجتمع والتراث الشعبي الفلسطيني قرية ترمسعيا، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، وجمعية الهلال الأحمر الفلسطيني في الكويت، آب (أغسطس)، ١٩٧٣م، ص ١٧٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(رفيق الخيّال خيّال)، عدا عن أنه استفاد من السيرة الشعبية لـ (عروة بن الورد) الصعلوك الذي كان يُطعم المحتاجين، وخاصة الضعفاء من الصعاليك. وقد جاء هذا عبر شخصية (السلوقي).

أما قصة (عباس الصياد وديك الحجل) فتدخل الفلكلور من كونها تقوم على المثل الشعبي (ابن الجنس قتل جنسه أو الحجل خوّان جنسه) لأن "المعروف أن طائر الحجل إذا وضع في قفص، يصدر صوتاً يجمع به الحجلان، وهذا ما يؤدي إلى صيدها"[١] – رغم أنّ توفيق زيّاد لم يذكر المثل في قصته- أضف إلى ذلك أن القصة مأخوذة أصلاً من التراث، لكن توفيق زيّاد أعاد صياغتها بأسلوب جديد رآه الأنسب للتعبير عن المضمون.

أما قصته (حكاية عن الحياة والموت) فتقوم فقط على الاستلهام من التراث عن قصة تحكي ملكاً هو (النعمان بن المنذر) الذي كان له يومان في العام: يوم بؤس، ويوم فرح، فمن جاءه في يوم فرحه أعطاه المال، وحمله العطايا، ومن جاءه في يوم بؤسه قتله بغير ذنب. وقد تصرف بها توفيق زيّاد، وصاغها على صورة أخرى تناسب ما يرمي إليه.

وهكذا فإنه يمكن القول: إن قصص توفيق زيّاد في مجموعته (حال الدنيا) كانت – عموماً- قصصاً فلكلورية.

وسواءً كانت القصص فلكلورية أم لا ، فالمهم أنّ توفيق زيّاد نجح من خلالها في تقريب نفسه من الجماعة، مجسراً بذلك الهوة التي يمكن أن تكون بينه وبينهم بين المبدع والمتلقي.

---

[١] عوض سعود عوض- دراسات في الفلكلور الفلسطيني، ط١، منظمة التحرير الفلسطينية، دائرة الإعلام والثقافة، ١٩٨٣م، ص١٧٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأحياناً نراه يعرف الشخصية من خلال بيئتها وعدد من صفاتها الإيجابية وظروفها الحياتية، وهذا ما فعله في تعريفه الشاعر "خلف لدن" حيث يقول فيه: "خلف لدن"- أحد شعراء البادية الذين اشتهروا. وهو لم يكن شاعراً فحسب، وإنما كان فارساً معدوداً، ورجلاً شجاعاً، عاش حياة حافلة بالقتال والتجوال، حتى اشتهرت أفعاله وقصائده في المضارب، والقرى، والأوساط الشعبية في المدن".[١]

وبعد أن يذكر الظروف السياسية والأحداث التي أحاطت بالشخصية:

"السنة ١٩٣٦، الشعب العربي الفلسطيني يغلي كالمرجل.. والحكم البريطاني يتصدع تحت ضرباته.."[٢] نراه يتابع التعريف بها، مسلطاً الضوء على الجوانب المضيئة في حياتها، منتخباً ما يؤثر منها في القارئ، ولذلك كان يتخير الشخصية بدقة وعناية[٣] يقول: " "عوض" .. وألوف الشباب الغيور، يكون بين الطلائع التي انجذبت للمعركة، ووجدت في جو النار والحديد المدى الصحيح لتوثبها ووطنيتها... ويحارب عوض عساكر البريطانيين حرباً شجاعة، منتقلاً من جبل إلى جبل ومن موقعة إلى أخرى. ولكنه يقع أسيراً في أيدي الجيش البريطاني. ويصدر ضده حكم بالإعدام"[٤]

وينتقل توفيق زياد بعد ذلك إلى ذكر القصة التي كانت وراء العمل الأدبي، حيث يقول: "وماذا يفعل المحكوم عليه بالإعدام في ليلته الأخيرة، وهو يعرف أن حبل المشنقة سيلتف على عنقه، مع أشعة الفجر الأولى؟ ... وتدمع عينا عوض. لا خوفاً من الموت، وإنما لأن جرح الوطن عميق في قلبه. ويأخذقطعة سوداء من الفحم يمررها على جدار غرفته في السجن، التي يقضي فيها لحظاته الأخيرة"[٥].

ويأتي إلى التعريف بالعمل الأدبي نفسه، فيقدم له، قبل ذكره وعرضه، تقديماً يبرز النواحي الجمالية فيه، حيث يقول: "فتبوح قطعة الفحم بكل شجونه، مسجلة واحدة من أروع القصائد الشعبية التي ندر أن قيل مثلها. فهي قطعة فنية متكاملة، زاخرة بأروع مشاعر التضحية والصمود والإصرار.. اكتشفها بعض السجناء، وحفظها واستطاعت أن

---

[١] صور من الأدب الشعبي، ص ١١٦ .

[٢] المصدر نفسه، ص ١٩ .

[٣] انظر : الحركة الأدبية، ص ٨٣، ٨٦ .

[٤] انظر : صور من الأدب الشعبي، ص ٢٠ .

[٥] انظر : المصدر نفسه ،ص ٢٠ ، ٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تخترق أسوار السجن، إلى الشعب في الخارج، وأن تنتشر إنتشار النار في الهشيم، وأن تكون سلاحاً ماضياً ضد الظلم والاضطهاد"[١].

تأمل تعريفه السابق تجده تعريفاً انطباعياً، يقوم على ما يحمله توفيق زياد من انطباعات ايجابية تجاه العمل. ولعل هذا ما جعل تعريفه بالعمل تعريفاً وصفياً في أغلب الأحيان، فها هو يعرف بقصيدة (وسدتها من شدة الشوق زندي) قائلاً : "والقصيدة تمتاز بوصف لوعة العشاق "المقطعين بسيف اللواحظ" و "المطعونين بقنا القد"، ووصف معاناتهم وصفاً صادقاً جسمانيا وروحياً، بتعابير شعبية تحرك القلب"[٢]. فهو لا يتطرق إلى دراسة أساليب القصائد ولغتها، إنما يكتفي بإرجاع المضامين إلى حياة الشاعر الخاصة- من خلال تعريفه بالشخصية صاحبة العمل- ويربطها بما جد على نفسيته من تغيرات بسبب الظروف المحيطة به.[٣]

وبعد تعريفه العمل، فإنه يذكره إما كاملا كما في هذه المقالة موضوع الدرس، أو ما توافر منه، كما في مقالته التي يتناول فيها (حسين علي الزبيدي) أحد أبطال ثورة سنة ١٩٣٦م، والقصيدة التي قيلت تخليداً لذاكرة (حسين بالمرجلة زايد).[٤]

وأحياناً يقسم توفيق زياد العمل الأدبي إلى أجزاء، ويقف منها موقفاً لا يزيد على كونه شرحاً وتعليقاً. وقد بدا هذا النهج واضحاً في مقالته التي تناول بها الشاعر الشعبي لثورة ١٩٣٦م (نوح إبراهيم) وقصيدته (دبّرها يا مستر دل)[٥]. ولعل هذا الشرح وهذا التقسيم ما جعل مقالاته الأدبية – عموماً – تمتاز بالطول.[٦]

وتوفيق زياد معني بإرساء مبادئ مدرسته ورؤاها الثابتة، لذلك نراه يوظف مقالاته في هذا السبيل. فيرسم صورة شعبه الثائر المقاوم، في مقالته (في ليلة الإعدام) حيثُ يقول: "إضراب الأشهر الستة الجماعي، والذي كان صفحةً رائعةً من غضب الشعب وإصراره، ويفجر ثورة آكلة.. ثورةً كان من الممكن – لو توفرت لها القيادة المخلصة الواعية- أن تضع حداً للاستعمار البريطاني"[٧].

---

(١) انظر : صور من الأدب الشعبي، ص ٢١ .
(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٨ .
(٣) انظر : الحركة الأدبية، ص ١٠١ .
(٤) انظر المقالة والقصيدة في : صور من الأدب الشعبي، ص ٢٣-٢٩ .
(٥) انظر المقالة والقصيدة وقصائد أخرى في المصدر نفسه، ص ٣١-٥٧ .
(٦) انظر : الحركة الأدبية، ص ٩٥ .
(٧) صور من الأدب الشعبي، ص ١٩ .
وانظر أيضاً حديثه عن الثورة المنظمة، والمخطط لها، والقائمة على التضحية، ضمن مقالة (حسين بالمرجلة زايد)، ص ٢٤، ٢٨ ، من المصدر نفسه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويعبر ضمن المقالة نفسها عن دور الشعب الكادح العامل المخلص في الكفاح والسير قدماً بالثورة. ودور السلطة الدائم في خيانة الشعب وإجهاض آماله وثورته،فيقول عبر شخصية عوض : "وتذكر شعبه البطل ... ورأى أنّ فقراء الشعب.. عماله وفلاحيه... هم الذين يحملون على أكتافهم عبء المعركة".[1]

مما سبق نجد أن مقالات توفيق زياد قد جاءت على نهج واحد. وتناول من خلالها المضامين ذاتها التي تناولها في أشعاره وقصصه. كما جاءت متواضعة في مستواها الفني. ولعل مرد ذلك إلى أنه كان يهدف من خلالها إلى بث أفكاره، ومواقفه، ومبادئ مدرسته عبر المضامين المختلفة، بصرف النظر عن المستوى الفني الذي تخرج عليه المقالة، إذ لم يوله العناية والاهتمام.

وتجدر الإشارة إلى أن عددا من مقالاته قد مثّل جانباً مهماً من الجانب النقدي لديه. وهذا ما سنتبينه لاحقاً – في الصفحات القادمة – عند الحديث عنه ناقداً.

---

[1] انظر : صور من الأدب الشعبي، ص ٢٠ .

وانظر أيضاً حديثه عن الكادحين المسحوقين صانعي الثورة، في مقالة (دبّرها يا مستر دل)، ص ٤٧، من المصدر نفسه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

توفيق زياد الناقد

لتوفيق زياد تجربة نقدية ، تناول من خلالها بالنقد مجموعة من القضايا.
ودراسة هذه القضايا ستبرز الصورة التي كان عليها في نقده، أكان عشوائياً أم منهجياً؟ كما ستبرز أيضاً طبيعته في نقده، أكان بناءً أم لا ؟
وستجلي في النهاية درجة الوعي التي كان عليها، في تناوله قضاياه المختلفة.

حفظ التراث الشعبي : لعل أبرز القضايا النقدية التي تناولها توفيق زياد، وكان فيها رائداً بإقرار زملائه، هي (قضية الأدب الشعبي)[١] حين عمد إلى حفظ التراث الشعبي من خلال تسجيله باللغة الفصحى المبسطة المستفيدة من العامية.

وقد تناول توفيق زياد هذه القضية من منطلق نظرته إلى الشعب من حيث كونه مجموعاً على أنه الفنان الأكبر، وليس الأديب من حيث كونه فرداً. ومن هنا فالأديب عنده جزءٌ من كل ، وليس فرداً من كثيرين، حيث يقول:

"كثيرون هم الشعراء، والفنانون، ورجال الفكر، الذين قدّموا للبشرية أعمالاً ضخمة، وكان انتاجهم قمماً شاهقة في الثقافة الإنسانية. ولكن في كل الثقافة البشرية، ذات المميزات العامة، وفي كل الثقافة البشرية، ذات المميزات الخاصة بشعب من الشعوب، توجد قمم لم يستطع، ولن يستطيع الوصول إليها أي شاعر أو فنان فرد. وشاعر هذه القمم غير المنازع، وصانعها المبدع، هو الشعب كمجموع"[٢].

وتنطوي نظرة توفيق زياد السالفة للشعب على إيمانة العميق بالقدرات الهائلة، والطاقات اللامحدودة لهذا الشعب. وفي هذا يقول: "إن الشعب -كمجموع- هو القوة المحركة لتطور المجتمع البشري، وهو صانع كل الخيرات المادية والروحية، وهو الرحم الخصب الذي يُعطي لكل جيل غذاءه الذي تتوفر فيه كل الفيتامينات الضرورية، حتى يشب قوياً معافى"[٣].

---

[١] انظر : د. هاشم ياغي – حركة النقد الأدبي الحديث في فلسطين، جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، قسم البحوث والدراسات الأدبية واللغوية، القاهرة، ١٩٧٣م، ص ٢٦٣ .

[٢] صور من الأدب الشعبي، ص ٩ .

[٣] المصدر نفسه ،ص ٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن هنا كان الشعب عنده هو القادر على التصدير لكل التحديات الحياتيـــة، بمـــا يملكه من قدرات، بما فيها نشاطه الثقافي[١]: "إن الشعب، الشاعر الأكبر كمجموع والفنان الأكبر كمجموع، كان دائماً قادراً أن يختزن حكمةً هائلةً في جملة، وأن يشحن بيتـــاً مـــن الشعر بصورة لا أروع ولا أعمق. وفي مثل من كلمات موسيقية، معدودة، يســـتطيع أن يعبر عن ومضة حياتية، بكل أبعادها وظلالها وتموجاتها، وفي جمل ســـهلة ممتنعـــة، أن يقدم قصة أو أسطورة يختزل فيها طبيعة مرحلة كاملة"[٢].

ويربط توفيق زياد بين الكل والجزء بين الشعب والفنان المنتمي إليه، مبيناً أن سر إبداع الفنان أو الشاعر أو المفكر هو ارتباط انتاجه بجماهير شعبه، وإنما خلدت أعمـــال كثيرين من هؤلاء، لارتباطها الوثيق بقضايا شعبهم وجماهيرهم وهمومـــهم ومشـــاكلهم. فيقول: "إن أكبر الفنانين والشعراء ورجال الفكر الذين قدموا انتاجاً خالداً ، كـــان ســـرهم الأساسي: ارتباطهم بجماهير الشعب والنظر إلى تجربتهم الذاتية، كجزء عضـــوي مـــن التجربة العامة، وفي استطاعتهم التعبير بانسجام عن ظروف عمل، وحياة وكفاح النـــاس المحيطين بهم. هذه الصلة كانت دائماً "القصبة الهوائية" التي كانوا يتنفسون منها. ولكـــن، مع ذلك، فإن إنتاجهم يظل دائماً محدوداً بذاتيتهم، وبظروفهم وممارستهم، وبمدى فهمـــهم لحركة التاريخ"[٣].

ويشير توفيق زياد إلى تميز الأدب الشعبي عن ذلك الإنتاج الفردي "بأنـــه إنتـــاجٌ جماعي ، إنتاج الشعب ككل"[٤].

إن توفيق زياد في نظرته للشعب مجموعاً، وللفنان المنتمي إليه جزءاً لا يتجـــزأ منه، إنما يؤكد نظرة مدرسته الواقعية الجديدة إلى الجماعة كلاً والفرد جـــزءاً لا يتجـــزأ منها.

ويرى توفيق زياد الأدب الشعبي قد استفاد من عامل الزمن الذي كان مصدر قـوة له، حين تنوقل عبر الأجيال المتعاقبة مستفيداً من خبرات كل منها وذكائه، فيبين أنه "لـــم يصمد لمرحلة معينة فحسب، بل قطع شوطاً طويلاً حتى وصل إلينا، مستفيداً ومغتنياً مـــن

---

[١] انظر : حركة النقد الأدبي، ص ٢٦٤ .

[٢] صور من الأدب الشعبي، ص ١٠ .

[٣] المصدر نفسه، ص ١٠ .

[٤] المصدر نفسه، ص ١٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذكاء وخبرة مختلف الأجيال التي واكبها. وكان دائماً خاضعاً "لتعديل" الأجيال المتعاقبة كل منها يحافظ على مضمونه وشكله الأساسيين، ويغنيهما بعناصر جديدة. ولذلك فإنه يصل إلينا صافياً.. مقطراً.. وقوي التعبير"[١].

وفي الوقت نفسه كان الزمن عينه مصدر ضعف لهذا الأدب حيث "أن الفلكلور – بأكثريته– يتميز عن غيره من الإنتاج المطبوع والمذاع بمحليته وخصوصيته. ففي كل منطقة وناحية، ومجال مهني، الأغاني "الخاصة" به، ... ، ولهذا الأمر بالضبط فإن خطر الضياع يتهدد دائماً الدرر الفلكلورية ، ويجعلها تضيع مع الوقت. إن مرور الزمن الذي هو مصدر قوة وثراء لفلكلورنا هو في نفس الوقت العدو اللدود".[٢]

وهو بهذا يعبر عن رؤية الواقعية الجديدة للشيء ونقيضه معاً، ولكنه يغني هذه النظرة حين يجعل الشيء نفسه نقيض ذاته !!

ولا يقف توفيق زياد عند هذا الحد، بل يقدم الحل الناجع للحفاظ على الأدب الشعبي "وذلك عن طريق جمع وتسجيل هذا الأدب الشعبي... للمحافظة على عدد هائل من الكنوز الفلكلورية، حتى لا تضيع كما ضاع غيرها".[٣]

ومن ثم "نقل روائعه إلى اللغة السليمة ... الفصحى المستفيدة من العامية... هذا هو الطريق للإبقاء عليها ...، ولتعميمها وجعلها ملكاً لكل الشعب. نقدمها له في الإطار اللغوي السليم الذي يفهمه الجميع... وهذا هو الطريق إلى عالميته.. إلى نقله للغات الشعوب الأخرى"[٤].

إنها الواقعية الجديدة التي لا تكتفي بنقد الواقع كما هو، وإنما تقدم الحل الأمثل لتغييره إلى نقيضه الأجمل والأفضل.

ثم يوضح توفيق زياد سبب اهتمامه بالأدب الشعبي، موقفاً واضحاً صريحاً، فيقول:

---

[١] صور من الأدب الشعبي، ص ١٠، ١١ .

[٢] انظر : المصدر نفسه ،ص ١٢ .

[٣] انظر : المصدر نفسه ، ص ١٢.

[٤] انظر : المصدر نفسه ، ص ١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"نحن لا ننظر إلى الأدب الشعبي المتناقل وكأنه شيء في أثر الماضي.. أو أيقونات نعلقها على الصدور، أو أشياء أثرية للزينة. أو نصوص تحفظ كما يحفظ القرآن المسلم غير العربي. ونحن لا ننظر إليه كجثة يجب تحنيطها، ووضعها في مزار. إنما ننظر إلى الأدب الشعبي من وجهة نظر الحاضر- والمستقبل. ففي مسيرتنا نحو الحرية السياسية والاجتماعية نحن بأمس الحاجة أن نشحذ ذلك السلاح الأصيل. إنه لازم لنا، لنصقل به نفسيتنا حتى يزدهر كل ما هو خير وطيب فيها. إن معرفة شبيبتنا وشعبنا لتراثه الفلكلوري ، هو أمرٌ ضروري له ليتربى على تقاليد إنسانية ووطنية".[1]

وهكذا فقد كان توفيق زياد يرى في التراث الشعبي من المقومات ما يساعد الإنسان العربي -عموماً- على النهوض من كبوته الحالية. أضف إلى ذلك أن توفيق زيادة بوعيه المتوقد كان يرى شعبه الفلسطيني تحديداً مهدداً بالاجتثاث من جذوره، بعد أن شرد بعضه، ورزخ بعضه الآخر تحت نير الاحتلال الذي حاول بشتى الوسائل والطرق طمس هويته العربية الفلسطينية ؛ فعمد إلى تسجيل تراثه العربي الأصيل، ردة فعل على تلك المحاولات، ووسيلة من وسائل النضال بالكلمة !!

---

[1] صور من الأدب الشعبي ، ص ١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشعر العربي الثوري في فلسطين المحتلة : وهنا يرى توفيق زياد شعراء الثورة الذين تفرقوا بعد النكبة مخلفين زخماً للأجيال التي تلتهم من الشعراء – يراهم أصلاً يمتد بجذوره إلى من تلاهم من شعراء ومنهم توفيق زياد نفسه.[١]

وهنا تتبدى نظرة الواقعية الجديدة إلى الحياة على أنها ديناميكية في حركة دائمة مستمرة متواصلة، لا تتوقف عند حد.

وفي تقسيمه ملامح الشعر الثوري في فلسطين المحتلة إلى ستة ملامح :

- نراه في **معركة البقاء والصمود** بعد تشرد الأهل يربط ما بين الأدباء والشعراء من جهة، والفلاحين والعمال (الطبقة العاملة) من جهة أخرى، أي: بين المثقف والمتقّف[٢]. وهو بذلك يؤكد التزام الواقعية الجديدة بقضايا الشعب وهمومه فيما يُعرف بـ (التزام الفن) والوحدة المصيرية التي تجمع فناني الشعب الملتزمين وجماهيره الكادحة العاملة معاً.
- وفي **معركة العودة (شعر القضية المستقلة)**[٣] نراه يؤكد ضرورة معايشة الفن للواقع، وتطوره معه، ومع ظروفه الموضوعية، شكلاً ومضموناً، وهو بذلك لا يخرج عن رؤية مدرسته للشعر على أنه المعادل الفني للواقع.
- وفي **المعركة ضد التهويد وسياسة العدمية القومية والتجهيل**[٤] نجده يؤكد موقف مدرسته المتمثل في استمرارية الحياة، من خلال تأكيده ضرورة وصل القديم بالحديث، لكي تتواصل الأجيال معاً في مسيرة الحياة المستمرة المتواصلة.
- وفي **معركة أخوة الشعوب والتضامن الأممي**[٥] يثبت نظرة مدرسته إلى الثورة أنها واحدة في بقاع العالم وأرجائه كلها، ضد قوى الظلم والاضطهاد والاستعمار أولاً، كما يؤكد ثانياً البعد الأممي الإنساني لديه الذي تدعو إليه مدرسته.

---

(١) انظر : حركة النقد الأدبي ، ص ٢٧٥، ٢٧٦ .

– وانظر أيضاً : د. عبد الرحمن ياغي – حياة الأدب الفلسطيني الحديث من أول النهضة حتى النكبة، ط٢، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨١م، ص ٧٦-٧٨ .

(٢) انظر هذا الملمح بالتفصيل في حركة النقد الأدبي، ص ٢٧٧-٢٧٩ .

(٣) انظر تفصيلها في المرجع نفسه، ص ٢٧٩-٢٨١ .

(٤) انظر تفصيلها في المرجع نفسه ، ص ٢٨١-٢٨٤ .

(٥) انظر تفصيلها في المرجع نفسه، ص ٢٨٤-٢٨٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ويبرز في **الأفق الطبقي**[١] نظرة مدرسته للمجتمعات على أنّها مكونة من طبقات، وأنّ الثورة دائماً تقع على كاهل الطبقة العاملة الكادحة.

- ويؤكد في **اعتماد الشعراء الفلسطينيين الثوريين على تجاربهم الذاتية إضافة إلى التجربة العامة لجماهير شعبهم في الأرض المحتلة**[٢] مبدأ الشعب كلاً والفنان جزءاً لا يتجزأ منه، فاعلاً فيه، ولا ينفصل عنه، ويؤكد ضرورة النظر إلى التجربة الذاتية من خلال التجربة العامة للجماهير، وبالتالي رؤية مدرسته الفرد من خلال الجماعة لا العكس.

من كل ما سبق فقد كان توفيق زياد ناقداً منهجياً، يصدر في نقده عن مبادئ مدرسته الواقعية الجديدة، وينهل من معين ثوابتها.

وتبدو هذه المنهجية واضحة أيضاً في مقالاته الأدبية في كتابه (صور من الأدب الشعبي الفلسطيني) الذي تناول فيه شخصيات أدبية، وأعمالاً لها معرفاً ومعلقاً وناقداً. فها هو يعبر عن الصراع الطبقي في المجتمع في تعليقه على شخصية الشاعر (ابو القاسم) فيقول: "ووقع هذا الشاعر في حب إحدى الجميلات الميسورات الحال، فما كان بإمكانه أن يبثها حبه، مع أن القرية كلها كانت تعرف شدة تعلقه بها. ولكن الفارق الطبقي، لم يبق له إلا أن يعبر عن حبه ذلك بطريقة غريبة حقاً"[٣].

وها هو يعلق على موّال (الدّهر دولاب) معبراً بذلك عن إيمان مدرسته الراسخ بالتغيير نحو الأفضل وديناميكية الحياة لا جمودها. حيث يقول: "ويبدو أنّ هذا الموّال قيل في أعقاب مأساة شعبنا سنة ١٩٤٨م، وانشطار أبناء الشعب الواحد بضربة سكين حادة... وفي الموّال رفض لفكرة "كله من الله"، وإيمان لا يتزعزع بتبدل الحال وانتصار الشعب في النهاية"[٤].

ولا تقف منهجية توفيق زيّاد النقدية عند هذا الحد فقط، إذ نراه في الصور التي عرضها من الأدب الشعبي الفلسطيني – في كتابه سالف الذكر– يختار شخصياته الأدبية بعناية ودقة فائقتين، حيث اختار الشخصيات التي كان لها دورها المحوري في رسم

---

[١] انظر ذلك في حركة النقد الأدبي، ص ٢٨٧ .

[٢] انظر ذلك في المرجع نفسه، ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

[٣] صور من الأدب الشعبي، ص ١٢٢ .

[٤] المصدر نفسه ، ص ١٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صورة الأدب الشعبي الفلسطيني، وتحديد معالم هذه الصورة. ثم اختار لهذه الشخصيات أعمالها المشهورة التي يعرفها القسم الأكبر من أبناء الشعب، مثل (عالأوف مشعل)، و (قطعن النصراويّات) التي ما زالت متداولة جارية على الألسن حتى الآن.

وفي عرضه هذا الصور نجده قد اتبع منهجية تهدف إلى الترتيب، فقام أولا بجمع الأشعار التي تمثل أدب المقاومة معاً تحت عنوان (من تراث أدب المقاومة) في الفصل الأول من الكتاب. ثم جمع الأشعار ذات الموضوعات المتعددة من النوادر الفكاهية، وحكايا الحب، وغيرها في فصل آخر أسماه (منوعات).

ومن الجهود النقدية الأخرى لتوفيق زياد ثلاث دراسات قام بها لثلاثة دواوين شعرية، أذكر منها دراسته شعر (محمود درويش) في ديوانه (عاشق من فلسطين) دراسة نقديةَ عنوانها (محمود درويش في عاشق في فلسطين)[١]. وفي هذه الدراسة يبدأ توفيق زياد ببيان الإيجابيات ممثلةً في بيان مدى تطور محمود درويش ونضوجه شعريا بما ظهر في شعره من تزايد في المرونة والحركة مبدأي الحياة، ودمج للتجربة الذاتية بالتجربة الجماهيرية العامة، وانتقال إلى الأفق العالمي الأممي، وحزن مبرر من جراء تفاعل محمود درويش مع قضايا شبيبة بلده المضطهدين الذين يحسون بالضياع؛ مما يجعل شعره دافعا إلى الصمود صادقا كفاحيا.

ثم يذكر السلبيات في شعره ممثلة في عدم انسجام القصيدة الواحدة من قصائده – أحيانا– فكريا، مما يقلل (الالتزام) فيها مضمونا رغم وحدتها فنيا، ونفاد صبره واستعجاله التغيير والتطور، مما قد يجهضهما نهائيا.

ولا يقف توفيق زياد عند هذا الحد بل يقدم الحل الأمثل لهذه السلبيات في شعر محمود درويش، ممثلا في ضرورة تعميق التوجه الطبقي في شعره كي يستطيعَ قراءة المشاعر البشرية، مما يؤدي بدوره إلى اكتشاف النقيض الأبعد والأعمق والأروع.[٢] وهذا كله امتداد في الفن الواقعي وأبعاده وفقا لأبعاد الواقع.

---

[١] انظر الدراستين الأخريين في كتاب الدكتور هاشم ياغي حركة النقد الأدبي، ص ٢٨٩، ٣٠٠ .

[٢] انظر عرض الدكتور هاشم ياغي هذه الدراسة بالتفصيل في المرجع نفسه، ص ٢٨٩-٣٠٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من هنا تكشف هذه الدراسة عن ناقدٍ لا ينقد لبيان العيوب والسلبيات، وإنما لبيان الإيجابيات ودعمها، ومن ثم بيان السلبيات، وتقديم الحل الكفيل بإزالتها؛ وهكذا فقد كان توفيق زياد ناقداً بناءً لا منتقداً هدّاماً.

وتوفيق زياد في نقده على درجة مميزة من الوعي، وقد بدا هذا في ملاحظته التي أبداها حول مسرحية (الأدب) للكاتب السويدي (أوغست ستراندبيرغ)[١] التي تعبر عن وعيه العميق بطبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة، حيث يبين أن الصراع بينهما لا يمكن أن يكون على أساس الجنس، وإنما هو على أساس اختلاف الثقافات والفكر والأيديولوجيات. مما يعني أن الصراع هو صراع طبقات بما تحمله كل منها من فكر وثقافة، لا رجال ونساء ولا حتى أفراد من الجنس ذاته.

وهكذا كان توفيق زياد ناقداً منهجياً بنّاءً واعياً، ولعلّ هذا مجتمعاً ما جعل الدكتور هاشم ياغي يراه ناقداً بالصورة ذاتها التي كان عليها شاعراً وكاتباً، حيث يقول فيه: "فتوفيق زياد يبدو ناقداً كما يبدو شاعراً وكاتباً ... فالنظرة إليه تشعر بنقده وكتابته مثلما تشعر بشعره"[٢].

ويراه ناقداً من مستوى رفيع، حيث يقول في ختام حديثه عن تجربته النقدية: "وبهذا القدر نكتفي في التدليل على نقد توفيق زياد من مستوى رفيع"[٣].

---

[١] انظر ذلك بالتفصيل في حركة النقد الأدبي، ص ٣٠٠-٣٠٢ .

[٢] انظر المرجع نفسه، ص ٢٦٢ .

[٣] المرجع نفسه ، ص ٣٠٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتمة :

هذا هو توفيق زياد شاعرٌ أمميّ إنسانيّ، وقوميّ عربيّ، ووطنـــيّ فلســطينيّ ذو انتماء مطلق للقضية الفلسطينية بكل أبعادها السياسية والاجتماعيـــة والإنســانية. شـــاعرٌ شعبي على اتصال وثيق بجماهير شعبه وجماعاته العاملة الكادحة، يعيش حياتهم وواقعهم، فيسجل همومهم ويدافع عن قضاياهم، فيكون واحداً منهم لا يغرب عنهم. شـــاعرٌ مقـــاوم وثائر مناضل، سلاحه في نضاله كلمة قناتها لا تلين، تمخر عباب المعركة، وتشق قميص الظلمة والدجى بدراً مكتملاً منيراً ، وشمساً ساطعة مضيئة.

وقاص فلكلوري يعيد صياغة الفلكلور بما يناسب روح العصر، وينتقي بعناية مـــا يخدم الجماعة وكل ما هو على صلة وثيقة بها، فيجسر الهوة بينه وبين أبناء شعبه فلاحيه وعمّاله بين المبدع والمتلقي.

وكانت مقالة أدبية يرسم من خلالها صورة الأدب الشعبي الفلسطيني فـــي أجمـــل تجلياتها وأبهى صورها.

وناقدٌ منهجي بناءٌ واعٍ، أرقته قضايا أدبه الفلسطيني ؛ فراح ينقدهـــا لا ينتقدهـــا، وخشي على تراثه العربي بما يحمله من كنوز الأدب الشعبي وما فيها مـــن أدب شـــعبي فلسطيني، فانبرى يسجله في سبيل الحفاظ عليه، ومن ثم تعميمه خشية عليه من الضياع!

وأخيراً فما زال الباب مفتوحاً أمام الباحثين والدارسين لدراسة أعمال توفيق زيـــاد بشعرها ونثرها وفق منهجية أخرى.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قائمة المصادر والمراجع

أ – المصادر :

- المطبوعة :

توفيق زياد – أشد على أيديكم، ط٢، مطبعة أبو رحمون، عكا، ١٩٩٤م.

توفيق زياد – أنا من هذي المدينة ، ط١، مطبعة أبو رحمون، عكا، ١٩٩٤م.

توفيق زياد – حال الدنيا ، ط٢ ، مطبعة أبو رحمون، عكا، ١٩٩٤م.

توفيق زياد – سجناء الحرية ، ط٢ ، مطبعة أبو رحمون، عكا، ١٩٩٤م.

توفيق زياد – صور من الأدب الشعبي الفلسطيني، ط٢ ، مطبعة أبو رحمون، عكا، ١٩٩٤م.

توفيق زياد – عمان في أيلول، ط٢، مطبعة أبو رحمون، عكا، ١٩٩٤م .

توفيق زياد – عن الأدب و الأدب الشعبي الفلسطيني، دار العودة، بيروت، ١٩٧٠م.

توفيق زياد – كلمات مقاتلة، ط٢ ، مطبعة أبو رحمون، عكا، ١٩٩٤م.

عائلة توفيق زياد – السيرة الذاتية ، (١٩٢٩-١٩٩٤)، مطبعة أبو رحمون، عكا، ١٩٩٤م.

ب – المراجع :

* القديمة :

عبد القاهر الجرجاني – أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة و النشر، بيروت، ١٩٧٨م.

* الحديثة بالعربية :

حسني محمود – راشد حسين الشاعر من الرومانسية إلى الواقعية، الوكالة العربية للتوزيع و النشر، الزرقاء، الأردن.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رشاد رشدي – فن القصة القصيرة ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٤م.

شريف كناعنة – المأثورات الشعبية، ط١ ، منشورات جامعة القدس المفتوحة، المكتبة الوطنية، ١٩٩٦م .

عبد الرحمن عباد – الحركة الأدبية الفلسطينية في الناصرة، مكتبة كل شيء، حيفا.

عبد الرحمن ياغي – حياة الأدب الفلسطيني الحديث من أول النهضة حتى النكبة، ط٢، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨١م.

عبد الرحمن ياغي – شعر الأرض المحتلة في الستينات دراسة في المضامين، ط٢، الكويت، ١٩٨٢م.

عدنان حسين قاسم – التصوير الشعري التجربة الشعورية وأدوات رسم الصورة الشعرية، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان.

علي عشري زايد – عن بناء القصيدة العربية الحديثة، مكتبة دار العودة، الكويت، ١٩٨١م.

عوض سعود عوض – دراسات في الفلكلور الفلسطيني، ط١، منظمة التحرير الفلسطينية، دائرة الإعلام والثقافة، ١٩٨٣م.

محمد النّويهي – الشعر الجاهلي- منهج في دراسته وتطبيقه- الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.

محمد النويهي – قضية الشعر الجديد، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، ١٩٦٤م.

محمود درويش – شيء عن الوطن ، ط١، دار العودة، بيروت، ١٩٧١م.

ميخائيل خليل ويردي- بدائع العروض أحدث وأسهل أسلوب لنظم الشعر على الإيقاع الموسيقي، مطبعة ابن زيدون، دمشق، ١٩٤٨م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هاشم ياغي – حركة النقد الأدبي الحديث في فلسطين، جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، معهد البحوث و الدراسات العربية، قسم البحوث و الدراسات الأدبية و اللغوية، القاهرة، ١٩٧٣م.

يوسف حداد– المجتمع و التراث في فلسطين قرية البصة، ط١، مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٨٥م .

يوسف حسين بكار – بناء القصيدة في النقد العربي القديم (في ضوء النقد الحديث)، ط٢، دار الأندلس للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، ١٩٨٣م.

يوسف حسين بكار – العروض و الإيقاع، ط١، منشورات جامعة القدس المفتوحة، ١٩٩٧م.

يوسف الشاروني – القصة القصيرة نظرياً وتطبيقياً ، دار الهلال، القاهرة، ١٩٧٤م.

*** المترجمة إلى العربية :**

ألكساندر هجرتي كراب– علم الفلكلور، ترجمة رشدي صالح، وزارة الثقافة، مؤسسة التأليف و النشر، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م.

سوزان لوهافر – الاعتراف بالقصة القصيرة، ترجمة محمد نجيب لفتة دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٠م.

كولردج – سيرة أدبية (النظرية الرومانطيقية في الشعر)، ترجمة الدكتور عبد الحكيم حسان، دار المعارف، مصر ، ١٩٧١م.

ج – كتب لمجموعة مؤلفين :

الأسلوب الصحيح في البلاغة و العروض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٤م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دراسة في المجتمع والتراث الشعبي الفلسطيني قرية تُرْمُسْعيّا ، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث وجمعية الهلال الأحمر الفلسطيني، الكويت، آب (أغسطس)، ١٩٧٣م.

في ذكرى الأربعين لرحيل الفارس توفيق زياد، مطبعة وأوفست الحكيم، الناصرة، آب، ١٩٩٤م.

الموسوعة العربية الميسرة، المجلد الثاني، دار نهضة لبنان للطبع والنشر ، بيروت-لبنان، ١٩٨٦م-١٤٠٦هـ .

د – الدوريات :

سمية الجندي، توفيق زياد وحال الدنيا، الموقف الأدبي، مجلد ٢٤، عدد ٢٨٢، دمشق ١٩٩٤م، ص ١١٧-١٢٤.

عبد الكريم أبو خشان، ذاكرة الزيتون: توفيق زياد: ١٩٢٩-١٩٩٤، فصول، مجلد ١٥، عدد ٤، القاهرة، ١٩٩٧م، ص ٩٩-١١٥.

محمود درويش، حديث الشهر، الجديد، العدد ١٢، (حيفا-كانون ثان)، ١٩٦٦م، ص٤.

نظير مجلي، توفيق زياد : صقر فلسطين مات، اليسار، عدد ٥٤، القاهرة، ١٩٩٤م، ص ٤٢-٤٦.

هـ – الصحف :

توفيق زياد، قصة (عن الباشوات والبكوات والحمير)، الفكر الجديد، عدد ٦٣، ١٩٧٣/٩/٢م.

و – المعاجم :

ابراهيم أنيس ورفاقه – المعجم الوسيط ، ط٢ ، القاهرة، ١٩٧٢م.

أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور – لسان العرب، مجلد ١٢، دار صادر ، بيروت.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ABSTRACT

A Study of Tawfiq zayyad's Literary Works

By

Osama Hatim Shahin

Supervisor

Hashem Yaghi

In the aftermath of the Palestinian calamity Palestinian literature attracted public attention. Many Palestinian poets and literary figures have strived to convince the world at large of the righteousness of the Palestinian question which has consumed much of their thought and interest. Such poets have sincerely devoted much of their poetry and literary writing to shed some light on the Palestinian issue and to serve its purposes. However, the subsequent events which occurred in Palestine and the Arab world at large contributed to the appearance of a group of poets and men of letters inside the occupied territories in Palestine who differ from the other Arab contemporary writers in the sense that such writers have suffered under the grave consequences of the Israeli occupation of Palestine and they have resisted it by all means available. Such Palestinian poets and literary figures have devoted their art for the sake of their just and right cause in the elated hope of changing the harsh and desperate present situation in Palestine. Moreover, most of these Palestinian writers have been influenced by the various international liberation movements that took

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

place in different parts of the world and which called for the extrication of oppression, occupation and tyranny.

Most of these Palestinian literary figures are Marxists and advocates of the literary school "Neo-Realism". Therefore, it is not surprising that such Palestinian writers have far excelled their contemporary writers. These Palestinian writers have looked with aspiring eyes towards other oppressed and struggling nations which have obtained their independence and freedom through various liberation movements and have looked upon the Palestinian cause as an Arab issue rather than a Palestinian one, thus, they were able to make it transcend its regionalism and appear as an international issue. Among these literary figures was the outstanding and prominent poet, critic Tawfiq Zayyad who is the subject of our study.

This study aims to shed some light on Zayyad's complete works, his poetry and prose to highlight the main issues and themes which he tackled in his poetry, fiction, essays and literary criticism in the elated hope to find out to what extent he complies with the precepts of "Neo-Realism". The study aspires to analyze his art in terms of both form and content to present Zayyad as a poet, literary figure and a critic.

The study comprises a preface, two chapters and a conclusion. The preface is an introductory discussion of Zayaad's private life and thought and their apparent influence on the depiction of his character as a political and a literary figure.

The first chapter is a scrupulous analysis of Zayyad's poetry and its themes regardless of its chronological order. This chapter analyzes Zayyad's poetry in terms of artistry and poetic form.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

The second chapter also presents Zayyad's theory of constructive literary criticism.

Finally, the conclusion is a brief summary of the results of the study and it also endeavours to present Zayyad as a prominent Palestinian poet, short story writer, essayist, and a literary critic.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit